الكتاب الخامس

الصدع

obeikandl.com

obeikandl.com

الباب التاسع عشر

الثورة العقلية

الفصل الأول

الفنون الخفية

الحضارة فى كل عصر من العصور وعند كل أمة من الأمم نتاج أقلية من الأهلين تستتبع بامتيازاتها وتتحمل تبعاتها . والمؤرخ العليم بما تتصف به السخافات من عناد شامل نفاذ يوطن نفسه على الاعتقاد بما سوف يكون للخرافات من مستقبل باهر مجيد ؛ ذلك أنه لا يتوقع أن تنشأ درل كاملة على أكتاف خلائق ناقصة ؛ ويدرك أن نسبة قليلة من الناس فى أى جيل هى وحدها التى تستطيع أن تتحرر من المتاعب الاقتصادية تحرراً يتيح لها من الفراغ والنشاط ما تستطيع به أن تفكر تفكيرها الخاص بدل تفكير أسلافها أو من يحيطون بها ؛ ويتعلم هذا المؤرخ أن يبتهج إذا استطاع أن يجد فى كل فترة من الفترات عدداً قليلا من الرجال والنساء رفعوا أنفسهم بقوة عقولهم أو بفضل مولدهم أو ظروفهم من وهدة الخرافات ، والفنون الخفية ، والسذاجة العقلية إلى مستوى من الذكاء القائم على العلم وعلى المودة يدركون به ما هم فيه من جهل لا حد له .

ومصداقاً لهذا كانت الحضارة فى إيطاليا إبان عصر النهضة ميزة يخدن بها القليلون ، وينشئها القليلون ، ولا يستمتع بها إلا القليلون . أما الرجل

العادى الساذج ، الذى ليس أكثر من فرد فى جماعة ، فكان يحرث الأرض ويستخرج منها المعادن ، ويجر عربات النقل أو يحمل الأثقال ، ويكد ويكدح من مطلع الفجر إلى غسق الليل ، حتى إذا أمسى المساء أنهكه التعب فلم يجد فى نفسه قدرة على التفكير . ومن أجل هذا كان يتلقى آراءه ، ودينه ، وما يجيب به عن ألغاز الحياة من الهواء الذى يحيط به ، أو يرثها من كوخ آبائه وأجداده ؛ فكان يترك غيره يفكرون لأن غيره من الناس كانوا يرغمونه على أن يعمل لهم ؛ ولم يكن يكتفى بقبول العجائب التى تخلب لبه ، وتريح نفسه ، وتلهمه وتروعه ، والتى يحتويها دينه التقليدى — وهى عجائب كان يتكرر انطباعها فى عقله كل يوم عن طريق العدوى ، والتلقين ، والفن — بل كان يضيف إليها من ثنايا عقله الشياطين ، والسحر ، والنذر ، والتنبؤ بالغيب ، والتنجيم ، وعبادة المخلفات ، وصنع المعجزات التى يتألف منها ما يمكن أن نسميه الميتافيزيقا الشعبية التى لا تجيزها الكنيسة وتستنكرها وترى فيها مشكلة تسبب لها من المتاعب أكثر مما يسببه عدم الإيمان . وبينما كان الرجل الممتاز فى إيطاليا أرقى من مثيله فى طبقته من أبناء ما وراء الألب فى الثروة والثقافة بنصف قرن أو أكثر ، كان الرجل العادى المقيم فى جنوب الألب يشارك نظراءه فى شمال تلك الجبال فى كل ما كان سائداً فى ذلك العصر من خرافات وأوهام .

وكثيراً ما كان الكتاب الإنسانيون أنفسهم يسلمون عقولهم لسخافات بيئتهم ، وينثرون فى الصحف التى تفيض بالفصاحة الشيشرونية روح هذه البيئة أو سخافاتها إن شئت . فهاهو ذا بجيو مثلا يرتع ويمرح وسط النذر وغرائب المخلوقات كالفرسان الذين لا رءوس لهم والذين يهاجرون من كومو إلى ألمانيا ؛ أو آلهة البحار الملتحين الذين يخرجون من أعماق البحار ليختطفوا النساء الحسان من شواطئها[1] . وها هو ذا مكيفلى المتشكك فى الدين لا يستبعد أن يكون « الهواء مليئاً بالأرواح » ويجهر باعتقاده أن الحوادث الخطيرة

تسبقها وتدل عليها خوارق الطبيعة ، والنبوءات ، والوحى ، والعلامات التى تظهر فى السماء(٢) . وكان أهل فلورنس الذين يظنون أن الهواء الذى يتنفسونه يجعلهم مهرة لا يجاريهم فى ذلك غيرهم من الناس ، يعتقدون أن جميع الحوادث الخطيرة تقع فى أيام السبت ، وأن السير إلى الحرب فى شوارع معينة من المدينة يجر عليهم مصائب لا يستطيعون النجاة منها(٣) . واضطرب عقل بولتيان من جراء مؤامرة باتسى Pazzi اضطراباً لم يسعه معه إلا أن يعزو إليها ما أعقبها من مطر مدمر ، وعفا عن الشبان الذين أرادوا أن يضعوا حداً للمطر ، بأن أخرجوا جثة زعيم المؤامرة ، وعرضوها فى شوارع المدينة ، ثم ألقوها فى نهر الآرنو(٤) . وكتب مرسليو فتشينو يدافع عن التنبؤ بالغيب ، والتخمين ، ووجود الشياطين ، واعتذر عن عدم زيارة پيكو دلا ميرندولا Pico della Mirandola لأن النجوم وقتئذ لم تكن فى اقترانها مبشرة بالخير(٥) . ولعل ذلك الاقتران كان وهما صوره له الخيال . وإذا كان يسع الكتاب الإنسانيين أن يؤمنوا بهذا ، فهل يحق لنا أن نلوم عامة الشعب الذين لا نصيب لهم من الفراغ ولم ينالوا حظاً من التعليم إذا ظنوا أن العالم الطبيعى ملىء بالقوى الخارقة وأنه أداة لها تستخدمه لا غير .

وكان سكان إيطاليا يعتقدون أن كثيراً من الأشياء من مخلفات المسيح أو الرسل حقا . وقد بلغت هذه المخلفات من الكثرة درجة يستطيع الإنسان معها أن يجد فى الكنائس الرومانية فى عهد النهضة أشياء تمثل جميع مناظر الأناجيل . فواحدة منها تدعى أن قطعة من قماط الطفل يسوع ، وأخرى تقول إن بها عود دريس من مزود بيت لحم ، وثالثة تزعم أنها تضم قطعا من الأرغفة والسمك التى تضاعف عديدها ؛ ورابعة تنادى أن بها المائدة التى استخدمت فى العشاء الأخير ؛ وواحدة تعتقد أن بها صورة العذراء التى رسمها الملائكة للقديس لوقا(٦) . وكانت كنائس البندقية تعرض جسم القديس مرقص ، وقطعة من ذراع القديس چورچ وإحدى أذنى القديس

بولس ، وبعض السمك المحمر الذى أكل منه القديس لورنس ، وبعض الحجارة التى قتلت القديس استيفن(٧) .

وكان الاعتقاد السائد أن لكل جسم — بل لكل عدد وكل حرف — قوة سحرية . ويقول أرتيمو إن بعض العاهرات الرومانيات كن يطعن عشاقهن لحم الجثث البشرية المتعفنة يسرقنه من المقابر ليقوين به باههم(٨) . وكانت الرقى تستخدم لألف غرض من الأغراض ؛ ويقول أبوليان إنك إذا تلوت الرقية الصحيحة استطعت أن تقى تفسك شر الكلاب . وكانت الأرواح الخيرة والشريرة تملأ الهواء ؛ وكثيراً ما كان الشيطان يظهر بنفسه أو يلبس جسم من ينيبه ليغوى أو يرهب ، أو يخدع ، أو ينفث القوة أو العلم فيمن يريد ؛ وكان لدى العفاريت طائفة لا تنفد من العلم الخفى يستطيع المرء أن ينال ما يريده منها إذا استطاع أن يستميلها إليه بطريقة خاصة . وظل بعض رهبان الكرمل المقيمين فى بولونيا (حتى أدانهم سكستس الرابع فى عام ١٤٧٤) يعلمون الناس أن لا ضرر مطلقاً من أخذ العلم عن الشياطين(٩) ، وكان السحرة المحترفون يعرضون رقاهم المجربة الصحيحة التى ينالون بها معونة الشياطين على من يؤدون ثمنها من الطالبين . وكان المعتقد أن الساحرات — ونقول الساحرات لأنهن كن فى العادة من النساء — أقدر بنوع خاص على الاتصال بأولئك العفاريت الذين يقدمون هذا العون ، وكن يعاملنهم كأنهم عشاقهن أو آلهة لهن . وكانت اللاتى خُلعت عليهن هذه القوى الشيطانية يستطعن — كما يعتقد الناس — أن يتنبأ بالمستقبل ، ويطرن فى أقصر اللحظات مسافات شاسعة ، ويدخلن من الأبواب المغلقة صغيرة أو كبيرة ، ويصبن بشرهن المستطير من يسىء إليهن من الناس . وكان فى مقدورهن أن يبعثن فى النفوس الحب أو البغض ، ويحدثن الإجهاض ، ويصنعن السم ، ويحدثن الموت برقية أو نظرة .

وأصدر إنوسنت الثامن فى عام ١٤٨٤ مرسوماً بابويا يحرم فيه الالتجاء

إلى الساحرات ، ويسلم فيه بصحة بعض ما يدعينه من القوى ، ويعزو إليهن بعض العواصف والأوبئة ، وشكا من أن بعض المسيحيين ، الذين حادوا عن الشعائر الدينية الصحيحة ، كانوا قد اتصلوا اتصالا جسمياً بالشياطين ؛ وأنهم استعانوا بالرقى ، والعبارات السحرية المسجعة ؛ واللعنات ، وغيرها من الفنون الشيطانية . فأوقعوا ضرراً شديداً ببعض الرجال ، والنساء ، والأطفال ، والحيوانات(١٠) . وأشار البابا على عمال محاكم التفتيش أن يكونوا يقظين حذرين من هذه الأعمال . ولم يفرض هذا المرسوم على الناس الإيمان بالسحر على أنه من العقائد الرسمية للكنيسة . ولم يبدأ به عقاب الساحرات ؛ ذلك أن اعتقاد الناس بوجود الساحرات ، وعقابهن فى بعض الأحيان قد حدثا قبل صدور هذا المرسوم بزمن طويل . وكان البابا حين أصدره أميناً على ما جاء فى العهد القديم إذ يقول : « لا تدع ساحرة تعيش »(١١) . وكانت الكنيسة قد ظلت قروناً طوالا تؤمن بإمكان تأثير الشياطين فى الآدميين(١٢) . ولكن افتراض البابا حقيقة وجود السحر قد قوى الاعتقاد بصحة هذا التأثير ، وكان التحذير الذى وجهه لأعضاء محكمة التفتيش بعض الأثر فى اضطهاد الساحرات(١٣) . فقد حدث فى العام الأول بعض هذا المرسوم أن حرقت إحدى وأربعون امرأة فى كومو وحدها بتهمة أنهن من الساحرات(١٤) . وقضى المفتشون فى بريشيا عام ١٤٨٦ على عدد من الساحرات المزعومات بأن يسلمن إلى السلطة الزمنية أى أن يعدمن ، ولكن الحكومة رفضت تنفيذ الحكم ، وغضب لذلك إنوسنت أشد الغضب(١٥) وسارت الأمور سيراً أكثر من هذا انسجاما بين السلطتين فى عام ١٥١٠ ، فنحن نسمع أن ١٤٠ امرأة قد أحرقن فى بريشيا متهمات بالسحر ، وفى عام ١٥١٤ فى بابوية ليو الرحيم الظريف أحرق ثلثمائة أخريات فى كومو(١٦) .

وازداد عدد الأشخاص الذين يعتقدون . أو يعتقد غيرهم فيهم

أنهم يمارسون السحر زيادة سريعة وبخاصة فى إيطاليا الواقعة فى جنوب جبال الألب ، ولعل ذلك كان بسبب ما أحدثه الاضطهاد من استفزاز للنفوس أو لغيره من الأسباب . وأخذ الأمر يتفاقم حتى اتخذت صورة وباء فى طبيعته وكثرة المصابين به . وقال الناس وقتئذ إن ٢٥,٠٠٠ شخص حضروا « سبتا للساحرات » على سهل قريب من بريشيا ، وفى عام ١٥١٨ أحرق عمال محكمة التفتيش سبعين ساحرة مزعومة من أهل ذلك الإقليم . وزج آلاف فى سجون المحكمة . واحتج مجلس السيادة فى بريشيا على زج الناس جملة فى السجون ، وحال دون الاستمرار فى قتل السحرة والساحرات ، فما كان من ليو إلا أن أصدر مرسوماً (١٥ فبراير سنة ١٥٢١) ، يأمر فيه بحرمان أى موظف يأبى أن ينفذ دون تحقيق أو جدل أحكام عمال محكمة التفتيش ، ووقف جميع الخدمات الدينية بين أية جماعة تمتنع عن هذا التنفيذ . وتجاهل مجلس السيادة هذا المرسوم ، وعين أسقفين ، وطبيبين من أهل بريشيا ، وعامل من عمال محكمة التفتيش للإشراف على ما يحدث بعدئذ من محاكمات للسحرة والساحرات ، وللبحث فى عدالة ما صدر من أحكام سابقة ؛ وخول هؤلاء الرجال دون غيرهم سلطة إصدار الأحكام على المتهمين . وأنذر مجلس السيادة المندوب البابوى بأن يضع حداً لإدانة الناس لكى يستطيع بذلك مصادرة أملاكهم[١٦] . وكان هذا إجراء غاية فى الجرأة ولكن الجهالة وشهوة القتل والتعذيب تغلبتا آخر الأمر ، وظل إحراق الناس بتهمة السحر وصمة عار لا تمحى من تاريخ البشرية فى القرنين التاليين ، فى البلاد البروتستنتية والكاثوليكية ، وفى العالم الجديد والعالم القديم على حد سواء .

وكانت الرغبة الجنونية فى معرفة المستقبل عوناً كبيراً للمتنبئين بحظوظ الناس بأنواعهم المألوفة — قراء الكف ، ومفسرى الأحلام ، والمنجمين ؛ وكان هؤلاء أكثر عدداً وأعظم قوة فى إيطاليا منهم فى سائر أنحاء أوربا ؛

وكادت كل حكومة إيطالية يكون لها منجم رسمى يحدد لها بالنظر فى مواقع النجوم الأوقات الملائمة للبدء فى المشروعات الهامة . ولم يشأ يوليوس الثانى أن يغادر بولونيا إلا بعد أن أنبأه منجمه أن الوقت ملائم لمغادرتها ، وكان سكستس الرابع وبولس الثالث يطلبان منجميهما تحديد الساعات التى يعقدان فيها مؤتمراتهما الكبرى[١٦ ب] . وقد بلغ انتشار العقيدة القائلة بأن النجوم تسيطر على أخلاق البشر وشئونهم حداً جعل كثيراً من أساتذة الجامعات فى إيطاليا يصدرون فى كل عام تنبوءات قائمة على أساس التنجيم[١٦ جـ] ، وكان من أفانين أرتينو المضحكة أن يحاكى هذه التقاويم التى يضعها أولئك العلماء . ولما أن أعاد لورندسو ده ميديتشى جامعة پيزا ، لم يقرر ضمن مواد الدراسة فيها منهجاً للتنجيم ؛ ولكن الطلاب ضجوا طالبين وضع هذا المنهج ، ولم يجد بداً من الخضوع لمطلبهم[١٦ و] . ووجه پيكو دلا ميرندولا أحد العلماء الأعلام المحيطين بلورندسو هجوماً كتابياً شديداً على التنجيم ، ولكن مرسيليو فتشينو الأغزر منه علما دافع عنه . وصاح جوتشياردينى قائلا : « ألا ما أسعد المنجمين الذين يؤمن الناس بأقوالهم ولو صدقوا مرة واحدة وكذبوا مائة مرة ، على حين أن غيرهم من الناس يفقدون الثقة بهم إذا كذبوا مرة واحدة وصدقوا مائة مرة »[١٢ هـ] . لكن التنجيم مع ذلك كان ينطوى على شىء من التطلع نحو النظرة العلمية إلى الكون ؛ وكان فيه إلى حد ما مهرب من الاعتقاد بوجود كون تسيطر عليه مشيئة الله أو نزعات الشياطين ، ويهدف إلى العثور على قانون طبيعى شامل ينسق المظاهر الطبيعية ويوفق بينها .

الفصل الثانى

العـــلوم

لم يكن سبب تأخر العلوم هو مقاومة الكنيسة . بل كان ما يتمسك به الناس من خرافات وأوهام . ولم تكن الرقابة على النشر عقبة كأداء فى سبيل العلم إلى أن قامت حركة الإصلاح المعارضة عقب مجلس ترنت (١٥٤٥ وما بعدها) ، فقد جاء سكستس الرابع إلى رومة (١٤٦٣) بأشهر منجم عاش فى القرن الخامس عشر وهو چوهان ملر رچيو « مونس » Johan Müller "Regiomontnus" . وكان كوبرنيق فى عهد البابا ألكسندر يدرس العلوم الرياضية والفلك فى جامعة رومة ، ولم يكن كوبرنيق هذا قد وصل بعد إلى نظريته التى هزت كيان العالم والتى تقول بدوران الأرض فى فلكها حول الشمس ، ولكن نقولاس الكوزائى Nicholas of Cusa كان قد أشار إليها قبل ذلك الوقت ، وكلاهما من رجال الدين . وكانت محكمة التفتيش ضعيفة ضعفاً نسبياً فى إيطاليا طوال القرنين الرابع عشر والخامس عشر ، وكان من أسباب هذا الضعف بعد البابوات عنها فى أڤنيون ، وما قام بينهم من نزاع أثناء عهد الانشقاق ، وما وصل إليهم من عدوى الاستنارة فى عهد النهضة . وحدث فى عام ١٤٤٠ أن حاكمت محكمة التفتيش فى ميلان أماديو ده لاندى Amadeo de' Landi صاحب النزعة المادية ، وبرأته مما عزى إليه ، وحمى نصير جبريلى ده سالو Gabriele de, Salo هذا الطبيب الملحد من محكمة التفتيش مع أنه « اعتاد أن يقول إن المسيح ليس هو الله بل هو ابن يوسف »(٦٧) . وكان التفكير فى إيطاليا أكثر حرية والتعليم فيها أكثر تقدماً مما كانا فى أى بلد آخر خلال القرن الخامس عشر وفى أوائل القرن السادس عشر . وكانت مدارسها التى تعلم

الفلك ، والقانون ، والطب ، والآداب ملتقى الطلاب من أكثر من عشرة أقطار ، ولما أن أتم توماس لينا كر Thomas Lamacrel الطبيب والعالم الإنجليزى دراسته الجامعية فى إيطاليا وقفل راجعاً إلى إنجلترا أقام فى جبال الألب الإيطالية مذبحاً، ودشنه وهو يلقى آخر نظرة على إيطاليا باسم هذه البلاد الأم الحنون للعلم منشئة الدراسات وجامعة العالم المسيحى التى يواصل فيها العلماء دراساتهم بعد تخرجهم .

وإذا لم يكن العلم قد تقدم خلال القرنين السابقين على أيام فيساليوس Vesalius (١٥١٤ — ١٥٦٤) إلا تقدماً يسيراً فى هذا الجو المشبع بالخرافات من أسفل ، وبالتحرر العقلى من أعلى ، فقد كان أكبر السبب فى هذا أن المناصرة والتكريم كانا موجهين إلى الفن ، والمنح مخصصة للأدب ، وللشعر ، ولم تكن قد قامت بعد دعوة واضحة للأساليب والأفكار العلمية فى حياة إيطاليا الاقتصادية والعقلية . وكان يسع رجلا مثل ليوناردو أن يكون ذا نظرة كونية شاملة ، ويمس أكثر من عشرة علوم بعقلية الطُّلَعة المتشوف ، ولكن البلاد كانت خالية من المعامل العلمية الكبرى ، وكان تشريح الأجسام لا يزال فى بدايته ، ولم يكن ثمة مجهر يستعان به على دراسة علم الأحياء أو الطب ، أو مرقب يكبر الكواكب ويأتى بالقمر على حافة الأرض . وكان حب الجمال السائد فى العصور الوسطى قد نضج حتى عاد فناً فخماً جليلا ، ولكن لم يكن فى تلك العصور حب للحقيقة ينمو حتى يصير علما ، وكان كشف الآداب القديمة قد بعث فى الناس نزعة أبيقورية متشككة تمجد القديم وتتخذه مثلا أعلى بدل أن تجعلهم يخلصون إخلاص الرواقيين للبحوث العلمية التى تهدف إلى تشكيل المستقبل . ذلك أن النهضة قد وهبت روحها للفن ، ولم تترك للأدب منها إلا القليل ، وتركت أقل من هذا القليل للفلسفة ، وأقل من هذا وذاك العلوم . ولهذا كان ينقصها من هذه الناحية ذلك النشاط العقلى المتعدد الأشكال والذى امتاز به العصر الذهبى اليونانى من أيام بركليز

وإسكلس إلى زينون الرواقى وارستاخوس الفلكى . ولم يكن فى مقدور العلوم أن تتقدم حتى تمهد الفلسفة لها الطريق .

من أجل هذا كان مل الطبيعى أن يجد القارئ ، الذى يعرف عشرة من أسماء الفنانين ، مشقة فى تذكر اسم عالم إيطالى واحد فى عصر النهضة عدا اسم ليوناردو ، وهو لا يذكر اسم أمرجو فسپوتشى نفسه إلا إذا ذُكِّر به ، وأما جليليو فهو من رجال القرن السابع عشر (١٥٦٤ — ١٦٤٢) . والحق أنا لا نجد أسماء خالدة فى ذلك العصر إلا فى الجغرافية والطب . فنى أولها اشتهر أودريك البردنونى Oderic of Pordenone الذى سافر إلى الهند والصين للتبشير بالدين (حوالى عام ١٣٢١) وعاد عن طريق التبت وبلاد الفرس ، وكتب وصفاً لما شاهد ، وأضاف معلومات كثيرة قيمة لما كتبه ماركوپولو قبل جيل من ذلك الوقت . ولاحظ پاولو تسكانيلى Paolo Toscanelli الفلكى ، والطبيب ، والجغرافى مذنب هالى فى عام ١٤٥٦ ، ويقال إنه أمد كولمبس بالمعلومات وبالتشجيع فى مغامرته لاجتياز المحيط الأطلنطى(١٦ و) . وقام أمرجو فسپوتشى الفلورنسى بأربع رحلات بحرية إلى العالم الجديد (١٤٩٧ وما بعدها) ، وقال إنه أول من كشف أرض القارة وأعد لها خرائط ؛ نشرها مارتن وولد سيملر Martin Waldseemüller واقترح أن تسمى القارة « أمريكا » ، وأعجب الإيطاليون بالفكرة وأذاعوها فى كتاباتهم(١٦ خ) .

وكانت علوم الأحياء آخر ما نشأ من العلوم ، لأن نظرية خلق الإنسان خلقاً خاصاً منفصلا عن سائر الكائنات — وهى التى كان يؤمن بها الناس كافة تقريباً — قد جعلت من غير الضرورى ومن الخطر أن يبحث الناس فى أصله الطبيعى . وكانت هذه العلوم تقتصر فى الأغلب الأعم على البحوث والدراسات العملية فى علم النبات الطبى ، وفلاحة البساتين ، وتربية الأزهار ، والزراعة ؛ من ذلك أن پيترو ده كريستشنسى Pietro de Crescenzi

نشر وهو فى سن السبعين (١٣٠٦) كتيباً فى الجغرافية خليقاً بالإعجاب وإن كان قد تجاهل كتابات مسلمى أسپانيا فى ذلك الميدان ، وهى خير من كتابته . وأنشأ لورندسو ده ميديتشى فى كاريجى Careggi حديقة شبه عمومية من النباتات النادرة الوجود ، وأما أولى الحدائق العمومية المخصصة لعلم النبات فهى التى أنشأها لوكا غينى Luca Ghini فى پيزا عام ١٥٤٤ ، وكان للحكام ذوى النزعة الحديثة كلهم تقريباً حدائق للحيوان ، كما كان للكردنال أپوليتو ده ميديتشى polito de Medici يحتفظ بمعرض من الآدميين — هم طائفة من الهمج ينتمون إلى عشرين قومية مختلفة كلهم من ذوى الأجسام القوية الممتازة .

الفصل الثالث

الطب

وكان الطب أكثر العلوم ازدهاراً لأن الناس يضحون بكل شيء ما عدا الحرص على صحة الأجسام ؛ وكان الأطباء ينالون من الثروة الإيطالية الجديدة قسطاً موفوراً مشجعاً ؛ فقد كانت بدوا مثلا تؤدى لواحد منهم ألفى دوقة فى العام ليكون مستشاراً طبياً لها ، وتركته فى الوقت نفسه حراً يتقاضى ما يشاء من الأجر فى عمله الخاص . وكان بترارك الذى يعيش من مرتباته يندد أشد التنديد بأجور الأطباء العالية وبأثوابهم القرمزية وقلانسهم المصنوعة من فرو السنجاب(١٦) . وخواتمهم البراقة ومهاميزهم الذهبية . وقد حذر بجد وحرارة البابا المريض كلمنت السادس من الوثوق بالأطباء فقال :

« أعرف أن الأطباء يحاصرون فراش مرضك ، وطبيعى أن يملأ هذا قلبي خوفاً عليك . ذلك أن آراءهم متضاربة على الدوام ؛ وأن من لا يجد منهم جديداً ينطق به يجلله عار التخلف عن غيره من الأطباء . وهم يتجرون بحياتنا لكى تذيع شهرتهم بما يستحدثون من جديد كما يقول بلنى Plini . وحسب الواحد منهم أن يقول إنه طبيب لكى يؤمن الناس بكل كلمة يقولها ، وليس هذا شأن الحرف الأخرى ، مع أن كذبة الطبيب يكمن فيها من الأخطار ما لا يكمن فى كذبة غيره . وهم يتعلمون مهنتهم على حسابنا ، وحتى موتنا يهيئ لهم أسباب الخبرة ، فالطبيب وحده من حقه أن يقتل الناس دون أن يخشى عقاباً ؛ ألا أيها الأب يا أرحم الراحمين ! انظر إلى عصبتهم نظرتك إلى جيش من الأعداء ، واذكر القبرية المحذرة التى نقشها رجل بائس على شاهد قبره : « لقد مت من كثرة الأطباء ! »(١٧) .

obeikandi.com

ولقد كان الأطباء في جميع البلاد والعهود المتحضرة ينافسون النساء فيما يمتزن به من أنهن أكثر من يشتهى بنو الإنسان أكثر من يهجون .

وكان الأساس الذى قام عليه تقدم الطب هو بعث التشريح . ذلك أن خـدم الكنائس كانوا يتعاونون مع الأطباء كما كانوا يتعاونون مع الفنانين ، فيقدمون جثث الموتى لتشرح فى المستشفيات التى يشرف عليها أولئك الأطباء . فكان منديتو ده لوتسى Mondino de' Luzzi مثلا يشرح جثث الموتى فى بولونيا وكتب كتاباً فى « التشريح Anatomia (١٣١٦) بقى مرجعاً من أهم المراجع مدى ثلاثة قرون . على أنه كان يصعب على الأطباء مع ذلك أن يحصلوا على الجثث ، وحدث فى عام ١٣١٩ أن سرق بعض الطلاب فى بولونيا جثة فى إحدى المقابر وجاءوا بها إلى أستاذ فى الجامعة شرحها أمامهم ليدرسوا أجزاءها ، فسيق الطلاب للمحاكمة ؛ ولكنهم برئوا ، وأخذ ولاة الأمور المدنيون من ذلك الوقت يغضون الطرف عن استخدام جثث المشنوقين التى لا يطالب بها أحد فى « التشريحات »(١٨) . ويعزى إلى بيرينجاريو دا كبرى Berengario da Capri (١٤٧٠–١٥٥٠) أستاذ التشريح فى جامعة بولونيا أنه شرح مائة جثة(١٩) . وكان التشريح يحدث فى جامعة بيزا منذ عام ١٣٤١ إن لم يكن قبله ، وسرعان ما سمح به فى جميع مدارس الطب بإيطاليا ومنها مدرسة الطب البابوية القائمة فى رومة ؛ وأجاز سكستس السادس (١٤٧١ – ١٤٨٤) هذا التشريح رسمياً(٢٠) .

واستعاد التشريح فى عهد النهضة على مهل تراثه المنسى فى عهد اليونان والرومان الأقدمين ؛ وحرره رجال أمثـال أنطونيو بنيفينى Antonio Beniveni ، وألسندرو أكيلنى Alessandro Achillnni ، وألسندرو بينيدتى Alessandro Beneditti ومار كانطونيو دلا توري Marcantonio della Torre ، حرره هؤلاء من سيطرة العرب ، وعادوا به إلى جالينوس وأبقراط ؛ وشكوا حتى فى هذين العميدين المقدسين ، وأضافوا إلى المعارف

العلمية فى الجسم البشرى كلى عصب ، وعظم ، وعضله فيه : ووجه بينيفينى بحوثه فى التشريح لمعرفة الأسباب الداخلية للأمراض ، وكانت رسالته فى الأسباب الخفية والعجيبة الأمراض وعلاجها (De abditis nonullis ac Mirandts Morborum et canatiornm causis ١٥٠٧) أساس التشريح المرضى (الباثولوچى) وجعل فحص الجسم بعد الموت عاملا أساسياً فى نمو الطب الحديث : وزاد فن الطباعة الجديد فى هذه الأثناء سرعة تقدم الطب لأنه يسر انتشار الكتب الطبية وتبادلها بين الدول المختلفة .

وفى وسعنا أن نقدر بعض التقدير انتكاس العلوم الطبية فى العالم المسيحى اللاتينى خلال العصور الوسطى إذا لاحظنا أن أعظم المشرحين والأطباء فى ذلك العصر لم يكادوا يبلغون من العلم قبل عام ١٥٠٠ ما بلغه أبقراط ، وجالينوس ، وسورانوس Soranus فى الفترة المحصورة بين ٤٥٠ ق . م و٢٠٠ بعد الميلاد . وكان العلاج فى خلال العصور الوسطى لا يزال قائماً على نظرية الأخلاط لأبقراط : وكانت الحجامة هى العلاج الشافى من كل العلل . وكانت أول محاولة معروفة لنقل الدم هى التى قام بها طبيب يهودى لعلاج البابا إنوسنت الثامن (١٤٩٢) ؛ وأخفقت هذه المحاولة كما قلنا من قبل . وكان الراقون لا يزالون يدعون لعلاج العجز الجنسى وفقدان الذاكرة بالرقى الدينية أو تقبيل المخلفات ؛ ولعل سبب التجائهم إلى هذه الأساليب أن هذا العلاج الإيحائى كان يساعد على الشفاء فى بعض الحالات : وكان الصيادلة يبيعون حبوباً وعقاقير عجيبة ويكثرون أموالهم بأن يضموا إلى سلعهم الكتب والورق ، والأدهان ، والحلوى ، والتوابل ، والحلى(٢١) ؛ وألف ميشيل سفنرولا والد الراهب الثائر رسالة **الطب التجريبى** (حوالى عام ١٤٤٠) ورسائل أخرى أقصر منها ؛ بحث فى إحداها كثرة إصابة الفنانين العظام بالأمراض العقلية ؛ وتحدث فى رسالة أخرى عن مشهورى الرجال الذين طال عمرهم نتيجة تعاطيهم المشروبات الكحولية كل يوم .

وكان الأطباء الدجالون لا يزالون كثيرى العدد ، ولكن القانون أصبح وقتئذ يعنى بتنظيم مهنة الطب أكثر من ذى قبل ؛ فكانت العقوبات توقع على الذين يمارسون الطب دون أن يحصلوا فيه على درجة علمية ؛ وكان حصولهم عليها يتطلب دراسة منهج فيه يدوم أربع سنوات (١٥٠٠) ؛ ولم يكن يسمح لأى طبيب بأن يشخص مرضاً خطيراً إلا إذا ضم إليه زميلا له . وكانت شرائع البندقية تحتم على الأطباء والجراحين أن يجتمعوا كل شهر ليتبادلوا المذكرات الطبية ، وأن يحتفظوا بجدة معلوماتهم بالاستماع إلى منهج فى التشريح مرة كل عام على الأقل . وكان يفرض على طالب الطب وقت تخرجه أن يقسم بألا يطيل على مريض زمن مرضه ، وأن يشرف على تحضير الدواء الذى يصفه له ، وألا يشارك الصيدلى فى الثمن الذى يتقاضاه نظير إعداد الدواء . وحدد هذا القانون نفسه (قانون البندقية الصادر فى عام ١٣٦٨) أجر الصيدلى نظير تحضير الدواء بعشرة صلديات(٢٢) . والصلدى عملة لا يستطاع الآن تقدير قيمتها . وقد وصلت إلى علمنا عدة حالات جعل فيها شفاء المريض شرطاً لتقاضى الطبيب أجره. وذلك بناء على تعاقد خاص بينهما(٢٣) .

وأخذت الجراحة ينتشر صيتها انتشاراً سريعاً كلما اقترب سجل عملياتها وآلاتها مما كان عليه من التنوع والاتفاق فى عهد المصريين الأقدمين . من ذلك أن برناردو دا رابلو Bernardo da Rapallo ابتكر الجراحة العجائية لاستخراج الحصوة (١٤٥١) ؛ واشتهر مريانو سانتو Mariano Santo بكثرة نجاحه فى استخراج حصاة المثانة بالشق الجانبى (حوالى ١٥٣٠) وابتكر چيوڤنى دا ڤيجو جراح يوليوس الثانى وسائل لربط الشرايين والأوردة خيراً من الوسائل التى كانت معروفة من قبل ؛ وعادت الجراحة التعويضية التى كانت معروفة للأقدمين إلى الظهور فى صقلية حوالى عام ١٤٥٠ ؛ وكانت الأنوف ، والشفاه ، والآذان المشدوهة تصلح بترقيعها

بالجلد المأخوذ من أجزاء أخرى من الجسم ، وقد بلغ من إتقانها أن الناظر إليها لا يكاد يتبين خطوط الالتحام(٢٤) .

وأخذت أساليب الصحة العامة تتحسن تحسناً مطرداً . من ذلك أن أندريا دندولو حين كان دوج البندقية (١٣٤٣ — ١٣٥٤) أنشأ أول لجنة بلدية معروفة للصحة العامة(٢٥) ، وحذت حذو البندقية فى ذلك غيرها من المدن الإيطالية . وكانت هذه اللجان الخاصة بالصحة العامة تختبر جميع الأطعمة والعقاقير التى تعرض للبيع على الجماهير ، وتأمر بعزل من يصابون ببعض الأمراض المعدية . ولما فشا الموت الأسود فى أوربا منعت البندقية فى عام ١٣٧٤ جميع السفن التى تحمل أشخاصاً يرتاب فى أنهم مصابون بالمرض أو بضائع مشتبها فى أنها مصابة به من الدخول فى موانيها . وفى راجوسا Ragusa كان القادمون يحجزون فى أماكن خاصة ثلاثين يوماً قبل أن يسمح لهم بالدخول إلى المدينة . وكانت البضائع المشتبه فيها تعامل هذه المعاملة نفسها . وأطالت مرسيليا مدة الحجر الصحى (١٣٨٣) (الكرنتينة la quarantine) فجعلته أربعين يوماً ، وحذت البندقية حذوها فى عام ١٤٠٣(٢٦) .

وأخذت المستشفيات يتضاعف عددها بهمة رجال الدين وغير رجال الدين وغيرتهم ، فأنشأت سينا فى عام ١٣٠٥ مستشفى اشتهر بسعته وبما كان يؤديه من خدمات ، وأسس فرانتشيسكو اسفوردسا المستشفى الكبير Ospedalc Maggiore فى ميلان (١٤٥٦) ، وحولت البندقية فى عام ١٤٢٣ جزيرة سانتا ماريا دى نادساريت Santa Maria di Nazaret إلى محجر صحى لإيواء المصابين بالجذام ؛ وكان هذا أول محجر معروف من نوعه فى أوربا كلها(٢٧) . وكان فى فلورنس فى القرن الخامس عشر ثلاثة وخمسون مستشفى(٢٨) ؛ وكانت هذه المؤسسات كلها تستمد معونة سخية من الهبات الخاصة والعامة ؛ وكانت بعض المستشفيات مضرب المثل فى روعة البناء

وفخامته ، ومنها المستشفى الكبير فى ميلان ؛ ومنها ما كان يزين جدرانه بالتحف الفنية المُلهِمة . واستخدم مستشفى كبا Ospedafe del Coppa فى پستويا چيوڤنى دلا رُبيا ليشكل لجدرانه نقوشاً من الصلصال المحروق تصف فى وضوح نماذج من مناظر المستشفيات ، وامتازت واجهة مستشفى البرءاء Ospedali degli Innocenti فى فلورنس الذى خططه برونيلسكو بالمدليات الرائعة المصنوعة من الصلصال المحروق التى وضعها فى البندريلات القائمة على عقود بابها أندريا دلاربيا . ولشد ما تأثر لوثر بما وجده فى إيطاليا من معاهد طبية وخيرية فى عام ١٥١١ ، وهو الذى روع بما كان فيها من فساد خلقى . وقد وصف لنا فى **حديث المائدة** مستشفياتها بقوله :

« المستشفيات فى إيطاليا جميلة البناء مزودة أعجب التزويد بأحسن أنواع الطعام والشراب ، ويعتنى فيها أحسن عناية بخدمة المرضى ، وجدرانها مغطاة بالصور والنقوش . وإذا جاءها مريض نزعت عنه ملابسه بحضور كاتب يثبتها عنده بعناية وتحفظ فى أمان . ثم يلبس المريض قميصاً أبيض اللون ، ويخصص له سرير مريح عليه غطاء نظيف من التيل . ويحضر إليه على الفور طبيبان ويأتيه الخدم بالطعام والشراب فى آنية نظيفة . . . . ويزور المستشفى بالتناوب كثير من السيدات ويعنين بالمرضى وهن محجبات الوجوه ، حتى لا يعرف أحد كنههن ؛ وتبقى كل واحدة منهن فى المستشفى بضعة أيام ، تعود بعدها إلى منزلها ، وتحل غيرها محلها . . . . وتضارع هذه المستشفيات فى الجودة ملاجئ اللقطاء فى فلورنس ، حيث يعنى أكبر عناية بإطعام الأطفال وتعليمهم ، وحيث يزودون بحلل متشابهة من الثياب ويلقون أعظم العناية بجميع أنواعها(٢٩) » .

وكثيراً ما يكون من نحس طالع الطب أن أمراضاً جديدة تقابل تقدمه العظيم فى العلاج — وتكاد تعقبه على الدوام . ومصداقاً لهذا نقول إن الجدرى والحصبة اللذين لا نكاد نسمع عنهما فى أوربا قبل القرن السادس عشر أصبحا

وقتئذ فى مقدمة الأوبئة الأوربية . وقاست أوربا فى عام ١٥١٠ أول وباء أنفلونزا سجله التاريخ فى ربوعها . واجتاح إيطاليا فى عامى ١٥٠٥ و ١٥٢٨ وباء من أوبئة التيفوس — وهو مرض لم يرد له ذكر قبل عام ١٤٧٧ . ولكن ظهور الزهرى فجاءة وانتشاره السريع فى إيطاليا وفرنسا فى أواخر القرن الخامس عشر كانا أكثر الظواهر رهبة وأشدها اختباراً لعلم الطب فى عصر النهضة . ولسنا نعرف هل كان الزهرى موجوداً فى أوربا قبل عام ١٤٩٣ أو هل جاء إليها من أمريكا حين عاد منها كولمبس فى ذلك العام ، فتلك مسألة لا تزال مثار الجدل بين العلماء وليس هذا موضع البت فيها .

وتؤيد بعض الحقائق النظرية القائلة إنه مرض أصيل فى أوربا ؛ من هذه أن مومسا أقرت فى محكمة بديجون أنها أقنعت أحد طلابها بعدم الاقتراب من لأنها مصابة بالمرض الكبير le gros mal ، ثم لا نرى بعدئذ وصفاً لهذا المرض فى ذلك السجل(٣٠) . وفى الخامس والعشرين من شهر مارس سنة ١٤٩٤ أمر منادى المدينة فى باريس أن يأمر كل المصابين بـ **البثرة الكبيرة** (٣١). أن يخرجوا من المدينة . ولسنا نعرف ماذا كانت هذه « البثرة الكبيرة » ، فلربما كانت هى الزهرى نفسه . وفى أواخر عام ١٤٩٤ غزا إيطاليا جيش فرنسى ، واحتل نابلى فى ٢١ فبراير من عام ١٤٩٥ ، وسرعان ما فشا فيها بعدئذ وباء أطلق عليه الإيطاليون اسم **الداء الفرنسى** il morlo gallico يزعمون أن الفرنسيين قد جاءوا به إلى إيطاليا . وأصيب بهذا المرض كثيرون من الجنود الفرنسيين ، ولما عاد هؤلاء إلى فرنسا فى شهر أكتوبر من عام ١٤٩٥ نشروا الوباء بين الأهلين ؛ ولهذا سمى فى فرنسا **مرض نابلى** Le mal de Naples لأن الأهلين افترضوا أن الجنود الفرنسيين قد أصيبوا به فيها . وفى السابع من شهر أغسطس عام ١٤٩٥ أى قبل عودة الجيش الفرنسى من إيطاليا بشهرين أصدر الإمبراطور مكسميليان مرسوماً ورد فيه ذكر المرض الفرنسى malum Francicum ؛ وغير خاف أن هذا « المرض

الفرنسى » لا يمكن أن يعزى إلى الجيش الفرنسى الذى لم يكن قد عاد بعد من إيطاليا . وأخذ لفظ « **المرض الفرنسى** morbus gallicus» منذ عام ١٥٠٠ يطلق على مرض الزهرى فى جميع أنحاء أوربا(٣٢) . ويحسن بنا أن نختتم هذه الفقرة بقولنا إن هذه كلها مجرد إشارات وليست أدلة قاطعة على أن الزهرى كان موجوداً فى أوربا قبل عام ١٤٩٣ .

أما القول بأن أصل المرض أمريكى فقائم على تقرير كتبه طبيب أسپانى يدعى راى دياز ده إزلا Rug Diaz de Izla بين عامى ١٥٠٤ و ١٥٠٦ (ولكنه لم ينشر إلا فى عام ١٥٣٩) . وهو يقول إن قبطان سفينة أمير البحر أصيب فى أثناء عودة كولمبس إلى أوربا بحمى شديدة مصحوبة بطفح جلدى مروع ؛ ويضيف إلى ذلك قوله إنه هو نفسه عالج وهو فى برشلونة بحارة مصابين بهذا المرض الجديد الذى لم يكن ، على حد قوله ، معروفاً فيها من قبل . وقد قال إنه هو بعينه المرض الذى كانت تطلق عليه أوربا اسم « المرض الفرنسى » ويؤكد أن العدوى قد جاءت إليهم من أمريكا(٣٣) . ومعروف أن كولمبس حين عاد من رحلته الأولى إلى جزائر الهند الغربية وصل إلى پالوس Palos فى أسپانيا فى الخامس عشر من شهر مارس سنة ١٤٩٣ . وقد لاحظ پنتور Pintor طبيب البابا اسكندر السادس فى ذلك الشهر نفسه ظهور المرض الفرنسى لأول مرة فى رومة(٣٤) . ومرت سنتان كاملتان تقريباً بين عودة كولمبس واحتلال الفرنسيين نابلى — وهى مدة تكفى لانتشار الداء من أسپانيا إلى إيطاليا — ؛ غير أننا لسنا واثقين من أن الوباء الذى اجتاح نابلى فى عام ١٤٩٥ هو الزهرى عينه(٣٥) ، والعظام التى يمكن أن يفسر ما فيها من تغيرات على أنه من فعل الزهرى جد نادرة فى المخلفات الأوربية قبل عهد كولمبس ، لكن عظاماً كثيرة من هذا النوع قد وجدت فى أمريكا من مخلفات العهود السابقة لرحلة كولمبس(*) (٣٦) .

(*) ويختم سارتن بحثه بقوله : « أما من حيث الزهرى فإنى قد عجزت حتى الآن عن أن —

ومهما يكن مصدر المرض الجديد ، فإنه انتشر بسرعة مروعة ، ويلوح أن سيزارى بورچيا قد أصيب به فى فرنسا ، كما أصيب به أيضاً كثير من الكرادلة ويوليوس الثانى نفسه ؛ على أننا يجب أن ندخل فى حسابنا إمكان انتقال العدوى به عن طريق الاختلاط البرىء بأشياء أو أشخاص تحمل أو يحملون جرثومة المرض النشيطة . وكان الطفح الجلدى يعالج فى أوربا من زمن بعيد بالمرهم الزئبقى ؛ أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقـــد أصبحت مركبات الزئبق شائعة شيوع البنسلين فى هذه الأيام . وكان الجراحون والدجالون يسمون بالكيميائيين لأنهم حولوا الزئبق إلى ذهب ، واتخذت إجراءات للوقاية من الداء . من ذلك أن قانوناً صدر عام ١٤٩٦ يحرم على الحلاقين قبول المصابين بالزهرى أو استخدام الآلات التى استعملوها أو استعملت لهم . وتقرر فحص العاهرات مراراً أكثر من ذى قبل ، وحاولت بعض المدن تجنب هذه المشكلة بطرد المومسات منها ؛ فنفتهن فيرارا وبولونيا فى عام ١٤٩٦ بحجة أنهن مصابات « بنوع من الطفح السرى يسميه بعضهم بجذام القديس أيوب »(٣٨) . ودعت الكنيسة إلى العفة لأنها هى طريق الوقاية الذى يحتاجه الناس وعمل بهذه النصيحة كثيرون من رجال الدين .

وكان أول من أطلق لفظ syphilis (الزهرى) على هذا الداء هو چرولامو فراكستورو Girolamo Fracastoro أحـــد الأشخاص ذوى المواهب المتعددة ولكنه مع ذلك من جلة العلماء فى عصر النهضة . وقد بدأ

= أكشف وصفاً واحداً له قبل الأوصاف التى ظهرت متتابعة تتابعاً سريعاً فى عام ١٤٩٥ والأعوام التالية له . ولا أزال حتى الآن غير مقتنع رغم التأكيدات الكثيرة التى صدرت فى السنين الأخيرة ، بأن الزهرى الأوربى وجد قبل أيام كولمبس »(٣٧) .

ومن شاء الإستزادة من العلم بتاريخ الأوبئة وأثرها فى أحداث العالم فإنه واجد علماً ومتعة فى كتاب **Rats, Lice and History** الذى ترجمه إلى العربية الدكتور أحمد بدران ونشرته مؤسسة فرانكلين باسم الفيروس والتاريخ .

حياته بداية طيبة : فقد ولد فى ڤيرونا (١٤٨٣) من أسرة شريفة أنجبت قبله عدداً من الأطباء المشهورين . ودرس فى پدوا كل شىء تقريباً ؛ وكان من زملائه فى الدرس كوبرنيق وكان پمپونتسى Pomponazzi وأكاينى Achilini يعلمانه الفلسفة والتشريح ؛ ولما بلغ الرابعة والعشرين من العمر كان هو أستاذ للمنطق ثم ما لبث أن اعتزل هذا العمل ليخصص نفسه للبحث العلمى بوجه عام والبحث الطبى بوجه خاص تخففه رغبة قوية فى دراسة الآداب القديمة . وأثمر جمعه بين العلوم والآداب على هذا النحو شخصية مصقولة مهذبة . كما أثمر قصيدة رائعة مكتوبة باللغة اللاتينية على نمط قصيدة **الفلاحة** Georgics لڤرچيل سماها **الزهرى ، النجاه من الداء الفرنسى** Syphilis, sive le morlo gallico (١٥٢١) . وكان الإيطاليون من أيام لكريتيوس قد برعوا فى كتابة القصائد التعليمية ، ولكن من الذى كان يظن أن المطوقات المتناوبة(*) يمكن أن يتحدث عنها بشعر سلس ؟ أما لفظ سيفِلس فكان يطلق فى الأساطير القديمة على راع اعتزم ألا يعبد الله الذى لا يستطيع رؤيته ، بل يعبد الملك ، وهو وحده سيد قطعانه الذى يمكنه أن يراه ؛ ولذلك غضب منه أپلو فملأ الهواء بأبخرة كريهة أصيب منها سفلس بمرض مصحوب بطفح وخراجات فى جميع أجزاء جسمه ؛ تلك فى جوهرها هى قصة أيوب . واقترح فراكستورو أن يبحث عن أول ظهور « مرض شديد الوطأة ، نادر لم يرقط فى القرون الماضية اجتاح أوربا كلها ومدن آسية وليبيا المزدهرة وغزا إيطاليا فى تلك الحرب المشئومة التى كانت سبباً فى اشتقاق اسمه من بلاد غاله (فرنسا) » ليتبين مبدأ ظهوره ، وانتشاره الوبائى ، وأسبابه ، وعلاجه . وهو يرتاب فى أن المرض قد وفد من أمريكا ، لأن ظهوره كاد يكون فى وقت واحد فى كثير من بلاد أوربا البعيدة

(*) اسم طبى يطلق على نوع من الجراثيم منها جرثومة الحمى المالطية وحمى البحر المتوسط والزهرى الخ . (المترجم)

بعضها عن بعض . ويقول إن العدوى ؛ « لم تكن تظهر فى الحال ، بل كانت تبقى كامنة فترة من الزمن قد تطول أحياناً إلى شهر . . . بل إلى أربعة أشهر . وكانت قرح صغيرة تبدأ فى الظهور فى معظم الحالات على الأعضاء التناسلية . . . . ثم تظهر على الجلد بعدئذ بثرات عليها غشاء . . . . ثم تأكل هذه البثرات المتقرحة الجلد . . . وتصل عدواها إلى العظام نفسها . . . . وتأكل فى بعض الحالات الشفتان ، أو الأنف ، أو العينان ، وفى حالات أخرى تتآكل جميع الأعضاء التناسلية »[٣٩] .

ثم تمضى القصيدة فتبحث فى علاج هذا الداء بالزئبق أو بالجواياك (صمغ خشب الأنبياء) — وهو « خشب مقدس » يستعمله هنود أمريكا .

وتحدث فرانكستورا فى كتاب آخر منثور يسمى **العدوى** عن بعض الأمراض المعدية — كالزهرى ، والتيفوس ، والتدرن — وطرق انتشارها . واستدعاه بولس الثالث فى عام ١٥٤٥ ليكون كبير الأطباء لمجلس ترنت . وأقامت ڤيرونا نصباً عظيما تخليداً لذكراه ، ونقش چيوڤنى دال كاڤينو Giovanni dal Cavino صورته على مدلاة تعد من أجمل التحف الفنية التى من نوعها .

وكانت العادة المتبعة قبل عام ١٥٠٠ أن يطلق على جميع الأمراض المعدية على اختلاف أنواعها ذلك الاسم العام الشامل وهو « الطاعون » . ثم كان من الأعمال الدالة على تقدم الطب أنه قد ميز فى وضوح وشخص طبيعة هذا الوباء الخاص ؛ وأعد العدة لمقاومة انتشار مرض خطير كالزهرى . ولم يكن الاعتماد على أبقراط وجالينوس كافياً فى هذه الأزمة الطاحنة ؛ كما أنه لم يكن فى مقدور مهنة الطب أن تواجه هذه التجربة الغير المتوقعة إلا لأنها قد أدركت ضرورة الدراسة المفصلة الدائمة التجدد لأعراض هذا الداء ، وأسبابه ، وطرق علاجه بتجارب تجرى فى ميدان دائم الاتساع متصلة بعضها ببعض على الدوام .

وإلى هذه المؤهلات العالية ، وإلى الإخلاص فى العمل ، والنجاح فيه ،

يرجع فضل اعتراف الناس بأن الطبقة الممتازة من الأطباء تمثل فى إيطاليا أرستقراطية عصامية لم ترث المجد عن الآباء والأجداد . ولما أن فصل أولئك الأطباء مهمتهم عن الكنيسة فصلا تاماً ، أصبح الناس يجلونهم أكثر مما يجلون رجال الدين ؛ فلم يكن كثيرون منهم مستشارى الأمراء ، والأحبار ، والملوك فى الطب فحسب ، بل كانوا إلى ذلك مستشاريهم السياسيين ، وكثيراً ما كانوا رفاقهم المحببين . وكان كثيرون منهم من الكتاب الإنسانيين ، ملمين بالآداب القديمة ؛ يجمعون المخطوطات والروائع الفنية ؛ وكثيراً ما كانوا أصدقاء كبار الفنانين وثيق الاتصال بهم . وآخر ما نقوله عنهم أن كثيرين منهم قد حققوا المثل الأبقراطى الأعلى وهو الجمع بين الفلسفة والطب(*) ، فكانوا يتنقلون فى يسر من موضوع إلى موضوع فى دراساتهم وفى تعليمهم ، ولبثوا فى الهيئة المهنية الفلسفية المتآخية حافزاً لإخضاع أفلاطون ، وأرسطو ، وأكوناس — كما أخضعوا أبقراط ، وجالينوس ، وابن سينا — للفحص المتجدد ، الجرىء الذى يهدف إلى معرفة الحقيقة .

(*) لقد حقق هذا الجمع على أوسع نطاق أطباء العرب (انظر الجزء الثالث عشر من هذه السلسلة . (المترجم)

الفصل الرابع

الفلسفة

يبدو من أول نظرة أن النهضة الإيطالية لم تثمر محصولا موفوراً من الفلسفة ، ذلك أن محصولها هذا لا يمكن أن يضارع ما أثمرته الفلسفة المدرسية الفرنسية فى أيام عزها من عهد أبلار إلى عهد أكوناس ، دع عنك « مدرسة أثينة الفلسفية » . وأعظم الأسماء التى اشتهرت بها فى الفلسفة (إذا تجاوزنا الزمن الذى يحدد عادة لنهاية النهضة) هو جيور دانو برنو Giordano Bruno (١٥٤٨ ؟ — ١٦٠٠) ؛ وعمل هـــذا الرجل خارج نطاق الفترة التى ندرسها فى هذا الكتاب . ويبقى بعد ذلك اسم پمپونتزى Pomponazzi ، ولكن منذا الذى يعظم الآن هذا الصارخ المتشكك الجرىء المسكين ؟

وقد احتضن الإنسانيون مبادئ الثورة الفلسفية حين اكتشفوا ونشروا بذور عالم الفلسفة اليونانية ولكنهم كانوا فى معظم الأحوال — إذا استثنينا ڤلا Valla — أكثر دهاء وحرصاً من أن يعرضوا معتقداتهم جهرة . وكان أساتذة الفلسفة فى الجامعات تقف فى سبيلهم تقاليد الفلسفة المدرسية ؛ ولهذا فإنهم بعد أن قضوا سبعة أعوام أو ثمانية يضربون فى تلك البيداء انتهوا إما إلى الخروج منها إلى ميادين أخرى من الدراسة وإما إلى دفع أجيال أخرى إليها ، بعد أن مجدوا لهم ما صادفوه من العوائق التى حطمت إرادتهم ووصلت بعقولهم سالمة إلى غاية عقيمة لا حياة فيها . ومن يدرى لعل الكثيرين منهم أحسوا بتسخط من السلامة العقلية والاقتصادية والاقتصار على المسائل الخفية الغامضة يصوغونها بعناية وحذر فى مصطلحات مجدبة غير مفهومة المعنى ؟ وكانت الفلسفة المدرسية لا تزال فى معظم الكليات الفلسفية خاضعة لتقاليد

والرسميات، وقد أخذت أطرافها تتجمد استعداداً للموت والفناء ؛ وأصبحت المسائل القديمة التى كانت مثار الجدل فى العصور الوسطى يعاد النظر فيها بأساليب الجدل القديمة التى كانت متبعة فى تلك العصور ، ويبذل فى هذا الجدل كثير من الجهد والعناء ثم تنشرها هيئة التدريس فى الكليات مزهوة بها مفتخرة .

وكان ثمة عنصران من عناصر الحياة يعملان لإحياء الفلسفة : هما النزاع القائم بين الأفلاطونيين والأرسطوطاليين ، ثم انقسام الأرسطوطاليين أنفسهم إلى مستمسكين بتقاليدهم القديمة ورشديين(*) . وأضحى هذا النزاع فى بولونيا وپدوا مبارزة حقيقية ومسائل حياة أو موت بمعناهما الحرفى . وكانت كثرة الإنسانيين أفلاطونية بتأثير جمستس پليثو Qemistus Pletho ، وبساريون Bessarion ؛ وثيودورس جادسا Fheodorus Qaza ، وغيرهم من اليونان وقد سكروا بخمر **المحاورات** ، وكان من العسير عليهم أن يفهموا كيف يطبق أى إنسان المنطق الجاف ، وما حواه كتاب **الأرغانون** الهزيل ، والطريقة « الوسطى الذهبية » الرصاصية التى ينادى بها أرسطو الحذر . ولكن هؤلاء الأفلاطونيين كانوا يصرون على أن يبقوا مسيحيين ؛ وكأنما كان مارسليو فتشينو Marsilo Ficino ممثلا لهم ومندوباً عنهم حين كرس نصف حياته للتوفيق بين أسلوبى التفكير المختلفين . ولكى يحقق هذا الغرض شرع يدرس دراسة واسعة ، وتوسع فى هذه الدراسة حتى شملت زردشت وكنفوشيوس . ولما وصل فى دراسته إلى أفلوطين ، وترجم هو نفسه **الانيادات** ، أحس أنه عثر فى الأفلاطونية الحديثة الصوفية على الخيط الحريرى الذى يستطاع به ربط أفلاطون بالمسيح . وحاول أن يصوغ هذا الارتباط فى كتابه **اللاهوت الأفلاطونى** Theologia platonica وهو خليط

(*) أتباع ابن رشد الفيلسوف الأندلسى العربى . (المترجم)

مهوش من الدين القويم ، والإيمان بالعلوم الخفية ، والهلينية ، ووصل فيه بعد تردد وإحجام إلى نتيجة من نوع مذهب الأحدية(*) فقال إن الله هو روح العالم . وأصبح هذا هو فلسفة لورندسو والملتفين حوله ، والمجامع العلمية الأفلاطونية فى رومة ، ونابلى ، وغيرهما من البلاد ؛ ووصلت هذه الفلسفة من نابلى إلى چيوردانو برونو ، ثم انتقلت من برونو إلى أسپنوزا ، ومنه إلى هيجل ، ولا تزال حية قائمة إلى يومنا هذا .

ولكنهم كانوا يجدون ما يقولونه دفاعاً عن أرسطو وخاصة إذا أسىء فهمه وتفسيره . ترى هل كان أكوناس على حق حين فهم أنه يقول بالخلود الشخصى ، أو هل كان ابن رشد محقاً حين فهم من كتاب النفس أنه لا يؤكد عدم الموت إلا لنفس بنى الإنسان الكلية ؟ وكان ابن رشد الرهيب ، ذلك الفيلسوف العربى المرعب ، الذى ظل الفن الإيطالى زمناً طويلا يصوره منكباً على وجهه تحت قدمى القديس توماس ، كان ابن رشد هذا منافساً يدعو إلى غلبة الفلسفة الأرسطوطالية بلغ من قوته أن أضحت پدوا وبولونيا تعجان بإلحاده . وكانت پدوا هى التى أضاع فيها مرسليوس ، الذى تسمى باسمها ، احترامه للكنيسة(**) . وفى پدوا استقى فلپو ألچيرى دانولا Filippo Algeri da Nola برونو المولود فى نولا نفسها تلك الأخطاء المروعة التى لقى فيها ذلك المصير المحزن إذ ألقى به فى برميل من القار وهو يغلى(٤٠) . ويبدو أن نقولتو ڤرنياس Nicoletto Vernias ؛ كان ، وهو أستاذ للفلسفة فى پدوا (١٤٧١ — ١٤٩٩) ، يعلم فيها العقيدة القائلة إن النفس الكلية العالمية وحدها ، لا النفس الفردية ، هى الخالدة(٤١) ، وعرض تلميذه أجستينو نيفو Agostino Nifo هذه الفكرة نفسها فى رسالة له

(*) أى القائلين بوحدة الوجود أى أن الله والعالم أحد واحد . (المترجم)

(**) ينتمى مرسليوس فيلسوف پدوا إلى الإصلاح الدينى لا إلى النهضة ولهذا أرجأنا الحديث عنه إلى المجلد التالى .

تدعى De intllectu et daemonibus (١٤٩٢) . وكان المتشككة يسعون فى العادة إلى تهدئة ثائرة محكمة التفتيش بأن يفرقوا (كما كان ابن رشد يفرق) بين نوعين من الحقيقة — الدينية والفلسفية : فيقولون إن قضية من القضايا يمكن رفضها فى الفلسفة إذا نظر إليها من ناحية العقل ، ولكنها مع ذلك يمكن قبولها على أساس الإيمان إذا أخذنا بقول الكتاب المقدس أو الكنيسة . وعبر نيفو عن هذا المبدأ ببساطة كان فيها جريئاً متهوراً فقال : « يجب أن نتحدث كما يتحدث الكثيرون ، ويجب أن نفكر كما يفكر القليلون[٤٢] . وبدل نيفو رأيه أو بدل أقواله لما تبدل لون شعره وتصالح مع مبادئ الدين القويم ، وكان وهو أستاذ الفلسفة فى بولونيا يجتذب الأعيان ، وكرائم السيدات ، وجماهير لا تحصى ، محاضراته المصحوبة بالتجهم والسخرية ، والمحلاة بالقصص والفكاهة . وأصبح من الناحية الاجتماعية أكثر معارضى پمپونتسى نجاحاً .

وكان پيترو پمپونتسى ، القنبلة الجهرية لفلسفة النهضة ، ضئيل الجسم إلى حد جعل أصفياءه يسمونه پريتو Peretto — أى « بطرس الصغير » . ولكنه كان كبير الرأس ، عريض الجبهة ، أقنى الأنف ، صغير العينين ، نفاذهما أسودهما ، وكان رجلا يأخذ الحياة والفكر مأخذاً جدياً أليما . وقد ولد فى مانتو (١٤٦٢) ودرس الفلسفة والطب فى پدوا ، ونال الدرجتين فيهما وهو فى سن الخامسة والعشرين ، ولم يلبث أن أصبح أستاذاً فى جامعة تلك المدينة نفسها و غمرته جميع تقاليد فلسفة پدوا المتشككة ، وبلغت فيه غايتها . حتى قال فيه ڤانينى Vanini المعجب به : « لقد كان يحق إلى فيثاغورس أن يحكم بأن روح ابن رشد قد تقمصت جسم پمپونتسى »[٤٣] . ويلوح أن الحكمة تكون على الدوام تجسداً لحكيم قديم أو صدى لأقواله لأنها تبقى [illegible] الدوام دون أن يطرأ عليها تغيير بعد أن تمر بآلاف الأنواع المختلفة [illegible] من الأغلاط .

obeikandi.com

وواصل پمپونتسى التدريس فى پدوا من ١٤٩٥ إلى ١٥٠٩ ؛ ثم اجتاحت أعاصير الحرب المدينة وأغلقت قاعات جامعتها التاريخية . وفى عام ١٥١٢ نجده مستقراً فى جامعة بولونيا حيث بقى إلى آخر أيام حياته ، وتزوج ثلاث مرات ، وظل على الدوام يحاضر عن أرسطو ، ويشبه فى تواضع جم علاقته بأستاذه بدودة تحاول ارتياد مجاهل فيل(٤٤) . وكان يرى أن من الأسلم له ألا يعرض آراءه كأنه هو صاحبها ، بل أن يعرضها على أنها متضمنة فى آراء أرسطو كما شرحه اسكندر الأفروديسى . وكانت طريقته تبدو أحياناً مسرفة فى التواضع ؛ يظهر فيه الخضوع الشديد للسلطة الميتة . غير أنه لما كانت الكنيسة تدعى أن عقائدها هى نفسها عقائد أرسطو ؛ متبعة فى ذلك رأى أكوناس ، فلعل پمپونتسى كان يشعر بأن الجهر بأية عقيدة خارجة على سلطان الكنيسة عقيدة أرسطوطالية بحق ستؤدى إلى غضب رجال الدين ، إن لم تؤد به هو نفسه إلى الحرق حياً . ذلك أن مجلس لاتران الخامس الذى عقد برياسة ليو العاشر (١٥١٣) أدان كل من يقول إن النفس واحدة لا تتجزأ فى جميع الناس ، وإن النفس الفردية يحق عليها الفناء ونشر پمپونتسى بعد ثلاث سنين من ذلك الوقت أكبر كتبه المسمى **فى خلود النفس** الذى حاول فيه أن يثبت أن هذا الرأى الذى رفضه المجلس هو رأى أرسطو بحذافيره ، فأرسطو حسبما يرى پيترو يقول إن العقل يعتمد على المادة فى كل خطوة من خطى تفكيره ، وإن أكثر المعارف تجريداً تستقى فى آخر الأمر من الحواس ؛ وإن العقل لا يستطيع أن يؤثر فى العالم إلا عن طريق الجسم ؛ ولهذا فإن النفس المجردة عن الجسم ، إذا بقيت بعد الإطار الفانى ، لا تكون إلا طيفاً لا حول له ولا عمل يقوم به . ويختم پمپونتسى حديثه بأن من واجبنا بوصفنا مسيحيين ومن أبناء الكنيسة المخلصين لها ، أن نؤمن بخلود النفس الفردية ؛ أما بوصفنا فلاسفة فليس هذا من واجبنا . ويبدو أنه لم يدر قط بخلد پمپونتسى أن دعواه لا تستقيم أمام دعوى

الكنيسة التى كانت تقول ببعث الجسم والروح جميعاً ؛ ولعله لم يكن يحمل هذه العقيدة على محمل الجد ، ولم يكن يظن أن قراءه أنفسهم سيحملونها على هذا المحمل . ومبلغ علمنا أن أحداً لم يُثر رأيه هذا ضده .

وأثار الكتاب عاصفة من الاحتجاج ، وأقنع الرهبان الفرنسيس دوج البندقية بأن يأمر بإحراق كل ما يمكن العثور عليه من نسخة علناً ؛ ونفذ هذا الأمر فعلا . ثم قدمت الاحتجاجات إلى المحكمة البابوية ، ولكن بمبو وبيبيا كانت لهما مكانة سامية فى مجالس ليو ، وأكدا له أن النتائج التى يعرضها الكتاب سليمة ليس فيها ما يعارض الدين الصحيح ، والحق أنها كانت كذلك . ولم يستطع المعارضون أن يسخروا ليو لما كانوا يريدون ، وقد كان يعرف حق المعرفة تلك الحيلة الصغيرة حيلة الحقيقتين(*) التى يقول بها بمبونتسى ، ولكنه قنع بأن أمر بمبونتسى بكتابة كلمة لطيفة يعلن بها خضوعه للكنيسة(٤٥) . وأجابه بترو إلى ما طلب وأصدر **كتاب الاعتذار** (١٥١٨) الذى يؤكد فيه بوصفه مسيحياً بأنه يؤمن بكل تعاليم الكنيسة . ثم أمر ليو حوالى ذلك الوقت أجستينو بأن يرد على كتاب بمبونتسى ؛ وإذا كان أجستينو مولعاً بالجدل ، فقد قام بهذه المهمة بحذق وسرور . ومن عجب أنه بينما كان رأس بمبونتسى معلقاً فى ميزان محكمة التفتيش ، إذا صح ذلك التعبير ، كانت ثلاث جامعات تتنافس للانتفاع بخدماته ؛ ولعل فى هذا التنافس دليلا على أن العداء بين الجامعات ورجال الدين كان لا يزال قائماً لم تنقطع أسبابه . فلما أن سمع رجال الحكم فى بولونيا أن بيزا تسعى لإغرائه بالمجىء إليها ، وكانت وقتئذ خاضعة رسمياً للبابا ، ولكنها مع ذلك أصمت أذنها عن سماع نداء الرهبان الفرنسيس الحانقين ، أطالت بقاء بمبونتسى فيها ثمانى سنين أخرى ورفعت مرتبه إلى ١٦٠٠ دوقة (٢٠,٣٠٠٠ ؟ دولار) فى العام(٤٦) .

(*) أى أننا نستطيع أن نقبل الشىء الواحد بالاعتماد على إيماننا الدينى وأن نرفضه معتمدين على عقائدنا الفلسفية . (المترجم)

وواصل بمپونتسى حملته التى يدعو فيها إلى التشكك فى كتابين صغيرين لم ينشرهما فى حياته ، أرجع فى أحدهما المسمى De incantione كثيراً من الظواهر الخارقه للطبيعة كما يزعم الناس إلى أسباب طبيعية . وكان سبب تأليفه أن طبيباً كتب إليه عن علاج شاف يقال إنه ثمرة رقى أو سحر ، فأمره پيترو أن يشك فى الأمر وكتب له يقول : « إن من السخف ومما يدعو إلى السخرية أن يحتقر الإنسان ما هو واضح وطبيعى لكى يلجأ إلى علة غير واضحة لايؤكد صحتها أى احتمال موثوق به »(٤٧) . وهو بوصفه مسيحياً يؤمن بالملائكة والأرواح ، ولكنه بوصفه فيلسوفاً يرفضها ، ويقول إن جميع العلل فى عالم الله طبيعية . وهو يتأثر بتدريبه الطبى فيسخر بالاعتقاد الشائع فى المصادر السحرية الخفية الشافية من الأمراض ويقول إنه لو كان فى مقدور الأرواح أن تشفى أمراض الأجسام لكانت هذه الأرواح مادية أو كانت تستخدم وسائل مادية كى تستطيع أن تؤثر فى جسم مادى ، ثم يمضى فيصور فى سخرية الأرواح الشافية تهرول غادية رائحة ومعها ما لديها من جبس ، ومرهم ، وحبوب(٤٨) . على أنه يعتقد أن لبعض النباتات والحجارة قوة علاجية ، ويصدق المعجزات الواردة فى الكتاب المقدس ، ولكنه يظن أنها كانت عمليات طبيعية ، ويقول إن الكون تسيطر عليه قوانين ثابتة منسقة ، وإن المعجزات ليست إلا مظاهر غير عادية لقوى طبيعية لا نعرف نحن إلا جزءاً من قدرتها ووسائلها ، والناس يعزون إلى الأرواح أو إلى الله ما لا يستطيعون إدراكه بعقولهم(٤٩) . ويصدق بمپونتسى كثيراً مما ورد فى التنجيم دون أن يرى فى ذلك ما يتعارض مع هذه النظرة ، نظرة العلل الطبيعية للأشياء ؛ وهو لا يقول إن حياة الآدميين خاضعة لتأثير الأجرام السماوية فحسب ، بل يضيف إلى ذلك أن جميع الأنظمة البشرية ، ومنها الأديان نفسها ، تنشأ ، وتزدهر ، وتضمحل بفعل المؤثرات السماوية ، ويصدق هذا أيضاً فى رأيه على المسيحية ، ويقول إن ثمة فى تلك الأيام

دلائل على أن المسيحية آخذة فى الزوال(٥٠) ؛ ثم يقول بعدئذ إنه بوصفه مسيحياً يرفض هذا كله ويراه سخفاً وهراء .

أما كتابه الأخير De Fato فيبدو أنه أكثر اتفاقاً مع الحقائق العلمية لأنه دفاع عن حرية الإرادة ؛ وهو يعترف بأن هذه الحرية لا تتفق مع علم الله بكل شىء ومعرفته بكل شىء قبل وقوعه ، ولكنه يصر على اعتقاده بحرية الإنسان فى نشاطه وعلى أنه لابد له أن يفترض فى الإنسان قسطاً من حرية الاختيار إذا كان للإنسان شىء من التبعة الأخلاقية . وكان فى رسالته عن الخلود قد عالج إمكان نجاح أى قانون أخلاقى إذا لم يستند إلى العقاب والثواب تفرضهما قوة غير بشرية . وآمن بفخر شبيه بافتخار الرواقيين أن الفضيلة نفسها جزاء كاف للفضيلة ، وليس ذلك الجزاء جنة بعد الموت(٥١) ، ولكنه يقر بأنه لا يمكن حمل معظم الناس على مراعاة السلوك الحسن إلا بالاعتماد على الآمال والمخاوف يتلقونها من قوة غير بشرية . وهذا ، فيما يقول ، هو الذى دعا كبار المشرعين إلى أن يغرسوا فى نفوس الناس الإيمان بوجود حالة فى المستقبل تحل محل الشرطة التى لا يخلو منها مكان ، وأكثر منها اقتصاداً ؛ ويبرر ، كما يبرر أفلاطون تلقين الناس الخرافات والأساطير إذا كان فى مقدورها أن تساعد على كبح جماح ما فطر عليه الآدميون من خبث(٥٢) :

« وهذا وعدوا الصالحين بالنعيم السرمدى فى الدار الآخرة ، وأنذروا الطالحين بالعقاب الأبدى الذى يرعبهم أشد الرعب . والكثرة الغالبة من الناس ، إذا فعلوا الخير ، إنما يفعلونه خوفاً من العقاب الأبدى لا أملا فى النعيم السرمدى ، لأنا أكثر علما بالعقاب من تلك النعم السرمدية . وإذ كان فى وسع الناس جميعاً أيا كانت طبقتهم أن يفيدوا من هذة الطريقة الأخيرة ، فإن المشرع ، وهو يرى ميل الناس إلى الشر وينزع هو إلى الخير العام ، قد نادى بأن النفس الخالدة ، غير مبال فى ندائه هذا بالحقيقة ، وإنما يعنى

بالخير والصلاح ، كى يستطيع بذلك أن يهدى الناس إلى الفضيلة(٥٢) .

وهو يرى أن الكثيرين من الناس يبلغون من السذاجة فى العقل ، والوحشية فى الأخلاق درجة لابد معها من معاملتهم كما يعامل الأطفال أو المرضى ، وليس من الحكمة أن يعلم هؤلاء العقائد الفلسفية . ويقول عن آرائه هو : « يجب ألا تنقل هذه الأشياء لعامة الناس لأنهم يعجزون عن تلقى هذه الأسرار ، بل إن من واجبنا أن نحذر من التحدث عنها إلى رجال الدين الجهلاء »(٥٣) وهو يقسم بنى الإنسان إلى فلاسفة ورجال دين ، ويعتقد اعتقاداً لايصح لنا أن نلومه عليه وهو أن « الفلاسفة وحدهم هم آلهة الأرض ، وأنهم يختلفون عن سائر الناس أيا كانت مراتبهم وأحوالهم ، بقدر ما يختلف الناس الأحياء عن تلك الصور المرسومة على القماش »(٥٤) .

وكان فى اللحظات التى هو فيها أكثر تواضعاً منه فى غيرها يدرك ضيق مجال العقل البشرى وما فى المتافيزيقا من عبث شريف . وقد صور نفسه فى سنيه الأخيرة رجلا منهوكاً هزيلا ، حائراً ، وشبه الفيلسوف بپر وميثيوس الذى حكم عليه بأن يشد إلى صخرة وأن ينقر قلبه صقر لا ينقطع عن ذلك أبداً(٥٥) لأنه أراد أن يسرق النار من السماء ــ أى أن يختطف المعرفة الإلهية . ويقول فى هذا : « إن المفكر الذى ينقب عن الأسرار الإلهية الخفية ليشبه پروتيوس Proteus . . . . فمحكمة التفتيش تحاكمه بتهمة الإلحاد ، والجاهير تسخر منه لأنه أبله »(٥٦) .

وأنهك الجدل الذى شغل كثيراً من وقته قواه وأضعف صحته ، فكان يتنابه الداء فى أثر الداء حتى اعتزم أخيراً أن يموت ، فاختار إلى الانتحار أشق صورة من صوره : إذ آثر أن يموت جوعاً ، فقاوم كل حجة يراد بها حمله على العدول عن قراره وكل تهديد وجه إليه ، وتغلب على القوة نفسها فأبى أن يتناول شيئاً من الطعام أو الشراب ، فلما مضت على هذا النظام الصارم سبعة أيام شعر بأنه كسب المعركة التى تقرر حتمه فى أن يموت ،

وأنه يستطيع وقتئذ أن يتكلم وهو آمن فقال : « إنى أفارق الحياة مسروراً »، ولما سأله بعضهم : أنى تذهب ؟ أجاب « إلى حيث يذهب جميع الخلائق الهالكين » . ويبذل أصدقاؤه آخر جهودهم ليقنعوه بأن يتناول بعض الطعام ، ولكنه أبى وفضل الموت (١٥٢٥)(٥٧) . وأمر الكردنال جندساجا الذى كان تلميذاً له أن تنقل رفاته إلى مانتوا وأن توارى فى ثراها ، وأقام فيها تمثالا تخليداً لذكراه ، وجرى فى هـذا على سنة التسامح التى تسود عصر النهضة .

ولقد عمد پمپونتسى إلى التشكك الذى ظل قرنين كاملين يحطم أسس العقائد المسيحية فصاغه فى صورة فلسفية . واجتمعت عوامل كثيرة لتجعل الطبقات الوسطى والعليا فى أواخر القرن الخامس عشر وأوائل القرن السادس عشر « أكثر الشعوب الأوربية تشككاً »(٥٨) ، نذكر منها إخفاق الحروب الصليبية ؛ انتشار الأفكار الإسلامية فى العالم الغربى بتأثير الحروب الصليبية ، والتجارة ، والفلسفة العربية ؛ وانتقال البابوية إلى أڤنيون ، وانقسامها السخيف على نفسها فى عهد الانشقاق الكبير ؛ وتكشف عالم وثنى يونانى — رومانى ملىء بالحكماء والفن العظيم رغم خلوه من الكتاب المقدس ومن الكنيسة ؛ وانتشار التعليم وتحرره المتزايد من السيطرة الكهنوتية ؛ وفساد أخلاق رجال الدين ومنهم البابوات أنفسهم وانهماكهم فى شئون الدنيا مما يوحى بعدم إيمانهم بما يجهرون به من عقائد ؛ واستخدامهم فكرة المطهر لجمع المال لأغراضهم الخاصة ، ومعارضة طبقات التجار وأصحاب المال الناشئة لسيطرة رجال الكنيسة ؛ وتحول الكنيسة من منظمة دينية إلى سلطة دنيوية سياسية ، هذه العوامل كلها وكثير غيرها هى التى أدت إلى النتيجة السالفة الذكر .

ويتضح من شعر بولتيان وبلتشى Pulci وفلسفة فتشينو Ficino ، أن لورندسو والملتفين حوله لم يكونوا يؤمنون إيماناً حقاً بحياة فى الدار الآخرة ؛

كما أن عواطف مدينة فيرارا تتضح من استهزاء أريستو بالجحيم الذى كان يبدو لدانتى من قبل رهيباً بحق . ويكاد نصف الأدب فى العصور الوسطى يكون معارضاً للكهنوت ؛ وكان كثيرون من رؤساء العصابات المغامرة يجهرون بكفرهم(٥٩) ، كما كان رجال الحاشية Cortigiani أقل تدينا من العاهرات Cortigiane ؛ وكان التشكك فى أدب وظرف سمة السيد المهذب ، والصفة التى ينبغى له أن يتصف بها(٦٠) . وكان پترارك يأسف لأن كثيرين من رجال العلم يرون أن تفضيل الدين المسيحى على الفلسفة الوثنية دليل على الجهل(٦١) ؛ وتبين أن معظم أفراد الطبقة العليا فى البندقية فى عام ١٥٣٠ يهملون أداء الواجبات الدينية فى عيد الفصح أى أنهم لا يذهبون للاعتراف وللعشاء الربانى ولو مرة واحدة فى العام(٦٢) . ويقول لوثر إنه وجد قولا شائعاً بين الطبقات المتعلمة فى إيطاليا حين يذهبون للقداس : « هيا بنا نرتكب الخطأ الذى يرتكبه العامة »(٦٣) .

أما عن الجامعات فإن الحادثة الآتية العجيبة تكشف عن مزاج الأساتذة والطلبة : دُعى سيمونى پوردسيو Simone Porzio تلميذ پمپونتسى بعد وفاة أستاذه بقليل ليحاضر فى پيزا ، فاختار موضوعاً لمحاضراته كتاب **المتيورولوجيا** لأرسطو . ولكن المستمعين لم يعجبهم هذا الموضوع ، وصاح بعضهم بعد أن نفد صبرهم : « وماذا تقول فى النفس ؟ quid de anima » . واضطر پوردسيو إلى أن يطرح كتاب المتيوروچيا جانباً ويتناول كتاب **النفس** وسرعان ما كان المستمعون كلهم آذاناً صاغية(٦٤) . ولسنا نعرف هل جهر پوردسيو فى تلك المحاضرة باعتقاده أن النفس البشرية لا تختلف اختلافاً جوهرياً عن نفس أسد أو نبات ؛ ولكننا نعرف أن هذا هو ما كان يدعو إليه فى كتابه **العقل البشرى** De mente humana(٦٥) ؛ ويبدو أنه لم يصب بأى أذى من جراء دعوته هـــذه . وروى يوچينيو طرالبا

Euginio Tarralba ، الذى اتهمته محكمة التفتيش الأسبانية فى عام ١٥٢٨، أنه كان فى شبابه يأخذ العلم فى رومة على ثلاثة من المعلمين يقولون كلهم إن النفس هالكة (٦٦) . ودهش إرمس إذ وجد فى رومة أن المبادئ الأساسية للدين المسيحى كانت موضوعات للجدل المتشكك بين الكرادلة أنفسهم ؛ وأن واحداً من رجال الكنيسة أخذ يشرح له سخف الاعتقاد بحياة فى الدار الآخرة ؛ وكان غيره يسخرون من المسيح والرسل ؛ وكان غيرهم ، كما يؤكد إرزمس نفسه ، يقولون إنهم سمعوا كبار الموظفين البابويين ينكرون القداس ويسبونه(٦٧) . أما الطبقات الدنيا فقد ظلت مستمسكة بإيمانها ، كما سنرى بعد ؛ وما من شك فى أن الآلاف المؤلفة الذين أنصتوا إلى سفنرولا كانوا يؤمنون بما يسمعون ؛ ولنا فى المثل الذى ضربه فتوريا كولنا ما يدل على أن التقى قد يبقى مع العلم . لكن سهام الشك كانت قد نفذت فى العقيدة الكبرى ؛ وكانت روعة أسطورة العصور الوسطى قد لوثها ما تراكم عليها من ذهبها .

الفصل الخامس

جوتشياردينى

إن عقل جوتشياردينى لهو خلاصة لما حدث فى ذلك الوقت من تشكك منشؤه خيبة أمله وتكشف الغشاء عن عينى أهله . وكان هذا العقل من أقوى عقول زمانه ، لايطيقه ذوقنا لإسرافه فى سخريته ، ولا يتفق مع آمالنا لإفراطه فى تشاؤمه ، ولكنه عقل نافذ كالضوء الكشاف يجوب أطراف السماء ، صريح صراحة الكاتب الذى قرر بحكمته ألا ينشر ما يكتب إلا بعد وفاته .

وكان فرانتشيسكو جوتشياردينى يستمتع منذ البداية بميزة مولده الأرستقراطى . فكان منذ طفولته يستمع إلى حديث المتعلمين باللغة الإيطالية الصحيحة ، وقد تعلم أن يقبل الحياة كما هى بواقعية الرجل الواثق من مكانته وطمأنينة باله . وقد شغل عم والده منصب حامل شعار الجمهورية عدة مرار ؛ كما تولى جده معظم المناصب الرئيسية فى الحكومة واحداً بعد واحد ؛ كان والده يعرف اللغتين اللاتينية واليونانية وقد شغل هو الآخر عدة مناصب دبلوماسية . وكتب فرانتشيسكو يقول إن « أشبينه هو مستر مرسيلو فتشينو أعظم الفلاسفة الأفلاطونيين فى العالم فى أيامه »(٦٨) ولم يحل هذا بين المؤرخ وبين أن يكون أرسطوطاليسى النزعة . ودرس القانون المدنى وعين وهو فى الثالثة والعشرين من عمره أستاذاً للقانون فى جامعة فلورنس . وكان كثير الأسفار ، ولم يفته حتى أن يلاحظ « المخترعات العجيبة التى لا يتصورها العقل » ، والتى ابتدعها هيرونيمس بوش Hieronymus Bosch فلاندرز(٦٩) وتزوج ماريا سلفياتى Maria Salviati وهو فى السادسة والعشرين من عمره « لأن آل سلفياتى كانوا ، فضلا عن ثرائهم العظيم ،

يفوقون غيرهم من الأسر فى النفوذ والسلطان ، وأنا مولع أشد الولع بهذه الأشياء »(٧٠) .

ولكنه مع ذلك كان شغوفاً بالتفوق يروض نفسه على تأليف الكتب العظيمة فى فن الأدب . وقد كتب وهو فى السادسة والعشرين من عمره تاريخ فلورنس Storia Fiorentina وهو من أعجب ثمار عصر نرى فيه العبقرية التى امتلأ إناؤها بتراثها المستعاد ، ولكنها تحررت من التقاليد ، تنساب حرة كاملة فى عشرات المسايل ، وقد اقتصر هذا الكتاب على جزء قصير من تاريخ فلورنس ، وهو الجزء المحصور بين عامى ١٣٧٨ و ١٥٠٩ ، ولكنه عالج هذه الفترة بدقة فى التفاصل ، وبحث للمراجع ونقد لها ، وتحليل نفاذ للعلل ، ونضوج ونزاهة فى الحكم ، وقدرة على القصص الواضح فى لغة إيطالية حلوة ؛ لم يرق إلى شىء منها تاريخ فلورنس Storie Fiorentine الذى كتبه ميكفلى بعد أحد عشر عاماً من ذلك الوقت فى العقد السابع من حياته .

وأرسل جوتشاردينى فى عام ١٥١٢ ، وهو لا يزال شاباً فى الثلاثين ، سفيراً لفرديناند الكاثوليكى ، ثم عينه ليو العاشر وكلمنت السابع فى أوقات متعاقبة متلاحقة حاكماً لرچيو إميليا ، ومودينا ، وبارما ، ثم حاكماً عاماً على إقليم رومانيا كله ، ثم قائداً عاماً لجميع الجيوش البابوية ، وعاد إلى فلورنس فى عام ١٥٣٤ وأيد السندروده ميديتشى طوال الخمس السنوات التى فرض فيها هذا الوعد سلطته الإستبدادية على المدينة . وكانت له اليد الطولى فى إقامة كوزيمو الأصغر دوقاً على فلورنس ، ولما ذهب ما كان يأمله من السيطرة على كوزيمو هذا انسحب إلى قصره الريفى ليكتب فى عام واحد المجلدات العشرة التى يتألف منها أعظم كتبه على الإطلاق وهو تاريخ إيطاليا Storia d' Italia

وهذا الكتاب أقل من كتابه الأول فى حلاوة أسلوبه وقوته . وكان جوتشيار دينى فى هذه الأثناء قد درس كتابات الأدباء الإنسانيين وانزلق إلى الاهتمام بالشكل وجمال اللفظ ؛ ومع هذا كله فالأسلوب جزل يبشر بنثر جبن Gibbon مضرب المثل فى البلاغه . وعنوان الكتاب الفرعى وهو *تاريخ الحروب* يقصر موضوعه على المسائل العسكرية والسياسية ، ولكن ميدان البحث يتسع فى الوقت نفسه حتى يشمل كل إيطاليا ، وكل أوربا من حيث علاقتها بإيطاليا ؛ وهذا أول تاريخ ينظر إلى نظام أوربا السياسى على أنه كلٌّ متصل . وجوتشياردينى يكتب فى الغالب عما شاهده بنفسه ، وإذا ما قرب الكتاب من نهايته فإنه يكتب عن الحوادث التى اشترك فيها بنصيب ، وقد بذل جهودا كبيرة فى جميع الوثائق ؛ وهو أكثر دقة وأجدر بالثقة من مكيفلى . وكان إذا ما رجع إلى العادة القديمة ، التى يرجع إليها معاصره الذى يفوقه شهرة ، عادة اختراع الخطب ليلقيها أشخاص قصته ، يقول بصراحة إن هذه الخطب ليست صحيحة إلا فى جوهرها ، وينص على أن بعضها حقيقى ؛ وهو يستخدم هذه وتلك ليعرض على القارئ جانبى موضوع من موضوعات النقاش أو يكشف عن سياسة الدول الأوربية فى الدخل والخارج . وهذا التاريخ الضخم و*تاريخ فلورنس* الباهر مجتمعين يرفعان جوتشياردينى إلى مقام أعظم مؤرخ فى القرن السادس عشر . وكما أن نابليون كان شديد الرغبة فى أن يرى الفيلسوف جيته ، كذلك أبى شارل الخامس فى بولونيا الأعيان وقواد الجيش جالسين فى حجرة الانتظار بينا كان هو يتحدث مع جوتشياردينى حديثاً طويلا ، ويقول : « إن فى وسعى أن أخلق عشرين نبيلا فى ساعة ، ولكنى لا أستطيع إيجاد مؤرخ واحد فى عشرين عاماً »(٧١) .

أما من حيث هو رجل من رجال الدنيا ، فإنه لم يكن ينظر بعين الجد إلى ما يبذله الفلاسفة من جهود لمعرفة أسرار الكون . وما من شك فى أنه لو رأى ما يثيره بمبونتسى من حماسة لتبسم ساخراً منها . وكان يرى أن من

العبث أن يثور بيننا النزاع حول خوارق الطبيعة لأن هذه الخوارق بعيدة عن مداركنا . والأديان كلها فى رأيه تقوم على افتراض صحة الأساطير ، ولكن هذا مما يمكن اغتفاره إذا كانت هذه الأديان تساعد على الاحتفاظ بالنظام الاجتماعى والتأديب الأخلاقى ؛ ذلك بأن الإنسان ، كما يراه جوتشياردينى ، أنانى يعمل لنفسه ، فاسد الأخلاق ، خارج على القانون ؛ ولهذا وجب أن توضع فى سبيله ، فى كل خطوة يخطوها ، عوائق من العادات ، والأخلاق ، والقوانين ، والقوة ؛ والدين فى العادة أقل الوسائل الموصلة إلى هذه الغاية مدعاة للنفور . ولكن إذا ما فسد الدين حتى أصبح عاملا على فساد الأخلاق بدلا من أن يكون سبباً فى صلاحها ، فإن المجتمع تسوء حاله لأن الدعامة الدينية التى يستند إليها قانونه الأخلاقى قد تقوضت من أساسها ، ويكتب جوتشياديني فى سجله السرى يقول :

ليس ثمة من يبغض الطمع ، والشره ، ومظاهر الإفراط فى القساوسة كما أبغضها أنا ، وليس ذلك لأن كل الشرور بغيضة فى ذاتها فحسب ، بل لأن . . . هذه الشرور يجب ألا يكون لها مكان عند رجال يفترض فيهم أنهم ذوو علاقة خاصة بالله . . . . ولقد كانت علاقتى ببعض البابوات مما جعلنى أرغب فى مثل عظمتهم مضحياً فى سبيل ذلك بمصالحى نفسها . ولولا هذا الاعتبار لأحببت مارتن لوثر كما أحب نفسى ؛ وليس ذلك لأنى أحب أن أكون حراً طليقاً من القيود التى تفرضها علينا المسيحية . . . بل لأنى أحب أن أرى هذا الحشد من الأوغاد (questa caterva di scelerate) محصورين فى نطاق الحدود الواجبة ، فإما أن يحيوا حياة مبرأة من الإجرام أو حياة مجردة من السلطان(٧٢) .

ولكن أخلاقه مع ذلك قلما كانت خيراً من أخلاق القساوسة ؛ وكان القانون الذى وضعه لحياته هو أن يكيف نفسه فى كل ساعة حتى تتفق مع أقوى سلطة قائمة . أما مبادئه العامة فقد اختص بها كتبه ، وفيها هى أيضاً يستطيع أن يكون ساخراً سخرية مكيڤلى :

« إن الإخلاص مجلبة للسرور ويكسب صاحبه الثناء ؛ أما الخداع فمجلبة للوم والكراهية ، بيد أن أولهما أكثر نفعاً للناس منه لصاحبه ؛ ولهذا فإن من واجبى أن أثنى على من كان أسلوب حياته متسما بالصراحة والإخلاص ، فلا يلجأ إلى الخداع إلا فى بعض الأشياء ذات الخطر العظيم ، وفى هذه الحالة يكون الخداع أكثر نجاحاً كلما كثرت محاولات الإنسان فى أن يشتهر بين الناس بالإخلاص(٧٣) .

وكان ينفذ ببصره وراء دعاوى الأحزاب السياسية المختلفة فى فلورنس ، ويرى أن كل حزب وإن نادى بالحرية إنما يسعى وراء السلطان :

« يبدو واضحاً لى أن الإنسان قد طبع على الرغبة فى السيطرة على زملائه وإثبات تفوقه عليهم ، ولهذا فما أقل من يحبون الحرية حباً يخول بينهم وبين تحين الفرصة المناسبة لحكم الناس وفرض السلطان عليهم . انظر عن كثب إلى سلوك الناس الذين يقيمون فى مدينة واحدة ، ولاحظ خلافاتهم وتقص أسبابها ، تجد أن هدفهم التسلط عليهم لا طلب الحرية لهم . ولهذا ترى أن أكبر الأهلين مقاماً لا يسعون إلى الحرية ، وإن كانوا لا ينفكون يلوكون هذا بلسانهم ، بل كل ما يضمرونه فى سرائرهم هو ازدياد سلطانهم وتفوقهم على غيرهم . أما الحرية عندهم فهى خداع وتصنع يخفى وراءه شهوة التفوق فى السلطان والشرف(٧٤) .

وكان يحتقر جمهورية سدريتى التجارية التى اعتادت أن تحمى حريتها بالذهب لا بالسلاح ، ولم يكن يؤمن بالشعب ولا بالديمقراطية .

« إن الحديث عن الشعب حديث عن الجنون ، لأن الشعب وحش جبل على الاضطراب والأخطاء ، ومعتقداته الباطلة بعيدة عن الحقيقة بعد أسبانيا عن الهند . . . وتدل التجارب على أن الأشياء قلما تحدث كما تتوقع الجماهير . . . وسبب ذلك أن النتائج . . . تعتمد فى العادة على رغبة عدد قليل من الأفراد تختلف نواياهم وأهدافهم فى جميع الأحوال تقريباً عن نوايا الكثرة وأهدافها »(٧٥) .

وكان جوتشياردينى مثلا لآلاف فى إيطاليا إبان عصر النهضة ، لا إيمان لهم فى شىء ما على الإطلاق ، فقد واحب المسيحية ، وعرفوا أضواء السياسة ؛ ولم تكن لهم مثل عليا ، أو أحلام ؛ ألقوا بأنفسهم فى أماكنهم لا حول لهم ولا طول بينا كانت الحرب والهمجية تكتسحان إيطاليا ؛ وكانوا شيوخاً مفكرين تحررت عقولهم وتحطمت آمالهم ، تبينوا بعد فوات الأوان أنه إذا ماتت الأساطير فلن تتحرر إلا القوة .

obeikandl.com

الفصل السادس

مكيڤلى

١ – الدبلوماسى

بقى من هذه الطائفة رجل واحد يصعب علينا أن نضمه إلى صنف بعينه ، فقد كان دبلوماسياً ، ومؤرخاً ، وكاتباً مسرحياً ، وفيلسوفاً ، وأكبر مفكر ساخر فى زمانه ، ولكنه كان مع ذلك وطنياً متحمساً يتحرق رغبة فى تحقيق مثل أعلى نبيل ، أخفق فى كل ما أخذ على عاتقه أن يقوم به من الأعمال ، ولكنه طبع التاريخ بطابع يكاد يكون أشد عمقاً مما طبعه به إنسان آخر فى ذلك العصر .

كان نقولو مكيڤلى ابن أحد المحامين فى فلورنس — وكان هذا المحامى رجلا متوسط الثراء ، يشغل منصباً صغيراً فى الحكومة ، ويمتلك بيتاً ريفياً صغيراً فى سان كاستشيانو San Casciano على مسيرة عشرة أميال من المدينة ؛ وتلقى الغلام التعليم الأدبى المعتاد ، وتعلم أن يقرأ اللغة اللاتينية بسهولة ، ولكنه لم يتعلم اللغة اليونانية . وراقه التاريخ الرومانى ، وأولع بليڤى ؛ ويكاد يجد لكل نظام سياسى ، وكل حادثة فى أيامه شبيهاً فى تاريخ رومة يوضح ذلك النظام وتلك الحادثة . وبدأ يدرس القانون ، ولكن يبدو أنه لم يتم هذه الدراسة ؛ وقلما كان يعنى بفن النهضة ، ولم يظهر شيئاً من الاهتمام حين كشفت أمريكا ، ولعله كان يشعر بأن كل ما حدث بعد هذا الكشف أن مسرح السياسة قد اتسع ، أما المسرحية فستبقى كما كانت وسيظل أشخاصها دون تغيير . وكان شغله الشاغل هو السياسة ، فن الحصول على النفوذ ، ولوحة الشطرنج التى تنتقل عليها قطع القوة والسلطان . وعين فى عام ١٤٩٨

وهو فى التاسعة والعشرين من عمره أميناً للديتشى دلا جويرا Dieci della Guerra — مجلس الحرب المكون من عشرة — وظل فى هـــذا المنصب أربعة عشر عاماً .

وكان هذا المنصب فى بادئ الأمر من المناصب المتواضعة — عمله جمع محاضر الجلسات ، والسجلات ، وتلخيص التقارير ، وكتابة الرسائل ؛ ولكنه كان يعمل فى أداة الحكم ، ويستطيع مراقبة سياسة أوربا من نقطة الملاحظة الداخلية ، وكان فى وسعه أن يحاول التنبؤ بالتطورات المقبلة بتطبيق معلوماته التاريخية . . وأحست روحه المتوثبة ، العصبية ، الطموحة ، بأن الوقت دون غيره هو الذى يحتاجه لكى يرقى إلى القمة ، ويسخر قوى الدولة العنيفة ضد دوق ميلان ، ومجلس شيوخ البندقية ، وملك فرنسا ، وملك ناپلى ، والبابا ، والإمبراطور . وما لبث أن أرسل فى بعثة إلى كترينا اسفوردسا Caterina Sforza كونته إمولا وفورلى (١٤٩٨) . وأثبتت كترينا أنها أشد دهاء من أن تقع فى حبائله ، فعاد صفر اليدين بعد أن لاقى جزاءه . وجُرِّب مرة أخرى بعد عامين ، وصحبه فى هذه التجربة فرانتشيسكو دلا كاسا فى بعثة إلى لويس الثانى عشر ملك فرنسا . ومرض دلا كاسا ، وكان على مكيڤلى أن يرأس البعثة ؛ فتعلم اللغة الفرنسية ، وتنقل مع الحاشية من قصر إلى قصر ، وبعث إلى مجلس السيادة من الأنباء اليقظة ، والتحليلات الدقيقة ، ما جعل أصدقاءه فى فلورنس يثنون عليه ويقولون إنه أصبح دپلوماسياً ضليعاً .

وكانت نقطة الانقلاب فى تطور ذهنه هى البعثة التى عين فيها مساعداً للأسقف سدرينى وسافرت إلى سيزارى بورچيا فى أربينو (١٥٠٢) . ولما استدعى إلى فلورنس ليلقى بياناً عنها بنفسه ، احتفل بمنزلته الراقية التى بلغها فى العالم بأن اتخذ له زوجة . وأرسل مرة أخرى إلى سيزارى فى شهر أكتوبر ، فالتقى به فى إمولا ، ووصل إلى بنجاليا Benigallia فى الوقت الذى

استطاع أن يرى فيه سعادة بورچيا بعد أن أفلح فى اقتناص الذين ائتمروا به ، أو خنقهم ، أو سجنهم . وكانت هذه حوادث هزت مشاعر إيطاليا بأجمعها ؛ أما أثرها فى مكيڤلى بعد أن التقى بالطاغية الباهر وجهاً لوجه ، فقد كانت دروساً فى الفلسفة . ذلك أن رجل الأفكار وجد نفسه وجها لوجه أمام رجل الأعمال فكرمه هذا وعظمه ، وتحرق قلب السياسى الشاب حسداً حين أدرك المسافة التى لابد له أن يقطعها من التفكير التحليلى النظرى إلى العمل الرائع المحطم . فهاهو ذا رجل يصغره بست سنين ، قد قضى فى سنتين اثنتين على أكثر من عشرة طغاة مستبدين ، وأصدر الأوامر إلى أكثر من عشر مدن ، وأثبت أنه الكوكب الوضاء فى سماء زمانه ؛ وما أضعف ما بدت الألفاظ أمام هذا الشاب الذى لم يكن ينطق منها إلا بالقليل ، وكان ينطق بهذا القليل فى ازدراء ! وأصبح سيزارى بورچيا من تلك الساعة بطل فلسفة مكيڤلى ، كما أصبح بسمارك فيما بعد بطل فلسفة نتشة . فقد وجد فى هذا الرجل الذى تجسدت فيه إرادة القوة والسلطان فلسفة أخلاقية فوق الخير والشر ، ونموذجاً للإنسان الأسمى .

ولما عاد مكيڤلى إلى فلورنس فى عام ١٥٠٣ ، أدرك أن بعض رجال الحكومة يظنون أن بورچيا الجرىء المتهور قد غلبه على أمره فبدل عقليته غير ما كانت . ولكن جهوده التى بذلها لتحقيق مصالح مدينته أعادت إليه احترام سدرينى حامل شعار المدينة ومجلس العشرة الحربى . وشهد فى عام ١٥٠٧ انتصار مبدإ من مبادئه الأساسية . فقد كان من زمن بعيد يقول إنه ما من دولة تحترم نفسها تقبل أن تعهد بالدفاع عن أراضيها إلى جنود مرتزقين ، وذلك لأنها لا تستطيع الركون إليهم فى الأزمات ، ولأن فى مقدور العدو المسلح بالقدر الكافى من الذهب أن يبتاعهم هم وقائدهم . ولهذا يرى مكيڤلى أنه يجب إنشاء قوة حرس وطنى من أبناء البلاد ، والأفضل أن تكون هذه القوة مؤلفة من الفلاحين الأشداء الذين ألفوا المشاق وعاشوا

فى الهواء الطلق . ويجب أن تكون هذه القوة على الدوام حسنة التجهيز والتدريب ، كما يجب أن تكون هى آخر خط للدفاع القوى الثابت عن الجمهورية . وقبلت الحكومة هذا المشروع بعد تردد طويل ، وعهدت إلى مكيڤلى أن ينفذه . فلما كان عام ١٥٠٨ قاد **حرسه الوطنى** إلى حصار پيزا ، حيث أظهر براعة فائقة ، وسلمت له پيزا ، وعاد مكيڤلى إلى فلورنس وقد بلغ ذروة مجده .

وأرسل فى بعثة أخرى إلى فرنسا (١٥١٠) ، اجتاز فيها سويسرا ، وأثار حماسته الاستقلال المسلح لدولة سويسرا الاتحادية ، واتخذها مثلا أعلى يريد أن يحققه لإيطاليا . ولما عاد من فرنسا أدرك المشكلة التى تواجهها بلاده : كيف تستطيع إماراتها المتفرقة أن تتحد لتدافع عن إيطاليا إذا ما قررت دولة متحدة مثل فرنسا أن تستولى على شبه الجزيرة بأجمعها .

وجاءت التجربة الكبرى لحرسه الوطنى قبل الأوان . ذلك أن يوليوس الثانى قد استشاط غضباً من فلورنس لأنها رفضت الانضمام إليه فى طرد الفرنسيين من إيطاليا ، فأمر جيوش الحلف المقدس فى عام ١٥١٢ أن تسقط حكومة الجمهورية وتعيد آل ميديتشى إلى العرش . وهزم حرس مكيڤلى الوطنى الذى عهد إليه الوقوف فى خط الدفاع الفلورنسى عند پراتو Prato وولى رجاله الأدبار أمام جنود الحلف المدربين . واستولى جنود الحلف على فلورنس ، وانتصر آل ميديتشى ، وفقد مكيڤلى سمعته ومنصبه الحكومى ، وبذل كل ما فى وسعه لاسترضاء المنتصرين ؛ وكان يسعه أن ينجح ، لولا أن شابين متحمسين دبرا مؤامرة لإعادة الجمهورية ، فاكتشف أمرهما ، ووجد بين أوراقهما ثبت يحتوى أسماء أشخاص يعتمدان على تأييدهم ، ومن بينها اسم مكيڤلى ؛ فألقى القبض عليه ، وعذب أربع دورات على العذراء ؛ ولكنهم لم يجدوا دليلا على اشتراكه فى المؤامرة فأطلق صراحة . وخشى مكيڤلى أن يقبض عليه مرة أخرى ، فانتقل هو

وزوجته وأبناؤه الأربعة إلى بيت أسرته فى سان كاستثيانو ، حيث قضى السنين الخمس عشرة الباقية من عمره ما عدا السنة الأخيرة منها ، يعانى الفقر ويعلل نفسه بالآمال ، ولولا هذه الكارثة لما سمعنا به قط ، لأن هذه السنين العجاف هى التى ألف فيها الكتب التى هزت مشاعر العالم كله .

٢ — المؤلف والرجل

وكانت هذه عزلة موحشة لرجل عاش فى خضم بحر السياسة الفلورنسية . وكان أحياناً يذهب راكباً إلى فلورنس ليتحدث مع أصدقائه القدامى ، ويتحسس ما عسى أن يكون هناك من فرص للعودة إلى المناصب الحكومية . وكتب عدة مرار إلى آل ميديتشى فى هذا الموضوع ، ولكنه لم يتلق منهم جواباً ، وقد وصف حياته فى رسالة ذائعة الصيت إلى صديقه ڤتورى Vittori سفير فلورنس فى رومة ، وأشار فيها إلى سبب تأليف كتاب الأمير فقال :

لقد ظللت منذ حلت بى الكارثة الأخيرة أحيا حياة هادئة فى الريف ؛ وأصحو فى مطلع الشمس وأسير إلى إحدى الغابات حيث أقضى بضع ساعات أراجع فيها عمل الأمس ؛ ثم أمضى بعض الوقت مع قاطعى الأشجار وأجد لديهم على الدوام متاعب يفضون بها إلىّ سواء أكانت متاعبهم هم أو متاعب جيرانهم . فإذا غادرت الغابة ذهبت إلى نبع ماء ثم إلى حظيرتى التى أصطاد منها الطيور ، ونحت إبطى كتاب دانتى ، أو پترارك أو أحد الشعراء الذين هم أقل منهما شأناً مثل تيبلس Tibellus أو أوڤد . وأقرأ فى هذه الكتب عن عواطفهم الغرامية وقصص حبهم ، فتذكرنى بتاريخ حبى أنا ؛ ويمر الوقت وأنا مبتهج مسرور بهذه الأفكار. ثم آوى بعدئذ إلى الفندق القائم على جانب الطريق ، وأتحدث إلى المارة ، وأسألهم عن أخبار الأماكن التى أقبلوا منها ، وأستمع منهم إلى ما يحدثوننى عنه وهو كثير ، وألاحظ مختلف

الأذواق والأوهام المستكنة فى عقول بنى الإنسان . وأصل بهذا إلى ساعة الغداء فأبتلع فى صحبة من معى ما عسى أن أجده فى هذا المكان الصغير من طعام غير ذى شأن يفى به ما ورثته عن أبوى من مال قليل . وأعود بعد الظهر إلى الفندق حيث أجد فى العادة صاحبه ، وقصاداً ، وطحاناً ، وانسين من صانعى الطوب ، فأختلط مع هؤلاء الأقوام الغلاظ طول النهار ألعب معهم النرد وغيره ، وتثور بيننا آلاف المنازعات ، ونتبادل كثيراً من السباب ، ونتشاحن على أتفه النقود حتى تسمع أصواتنا فى بلدة سان كاستشيانو . ويؤدى انغماسى فى هذا الانحطاط إلى ضعف قوای العقلية ، فأصب غضبى على القدر وبلواه . . . .

وأعود إلى دارى فى المساء ، وآوى إلى حجرة مكتبى ؛ وأخلع عند بابها ملابسى الريفية الملطخة بالطين والأقذار ، وأرتدى ثياب رجال البلاط ؛ حتى إذا لبست ما يليق بى من الثياب دخلت الأبهاء القديمة لقدماء الرجال الذين يرحبون بى أحسن الترحيب ، ويطعمونى الطعام الوحيد الذى أحبه وأرتضيه ؛ والذى ولدت له ، ولا أستحى من التحدث إليهم وسؤالهم عن بواعث أعمالهم ، وتصل بهم إنسانيتهم إلى أن يجيبوا عن أسئلتى ، وأقضى على هذا النحو أربع ساعات لا أشعر فيها بملل ولا أذكر فيها متاعب ، ولا أعود أخشى الفقر أو أرهب الموت ، لأن كيانى كله يكون مستغرقاً فيهم . وإذ كان دانتى يقول إنه لا وجود لعلم دون أن يحتفظ الإنسان بما يستمع ، فقد سجلت ما حصلت عليه من حديثى مع هؤلاء العظام وألفت منه كتيباً سميته **فى الإمارة** غرقت فيه إلى أبعد عمق أستطيعه من التفكير هذا الموضوع ، وبحثت فيه طبيعة الإمارة ، وعدد أنواعها ، وطريق الوصول إليها ، والاحتفاظ بها ، وسبب ضياعها ؛ فإذا كنت تعنى بشىء من عبئى ، فإنك لن تجد فى هذا ما يسوؤك . ويجب أن يرحب به على

الأخص كل أمير حديث العهد بالإمارة . ومن أجل هذا أهديه إلى فخامة جوليانو . . . (فى ١٠ ديسمبر سنة ١٥١٣)[٧٦].

ونرجح أن مكيڤلى قد اختصر القصة بقوله هذا . والظاهر أنه بدأ بوضع كتابه المسمى **أحاديث عن العشرة الكتب الأولى للبفى** ، وأنه لم يتم شروحه للثلاثه الأولى منها . وقد أهدى هذه الأحاديث Discorsi إلى دسانوبى بونديلمنتى Zanobi Bunodelmonti وكوزيمو رتشيلى Cosimo Rucelli وقال : « أبعث إليك بأعظم هدية أقدمها لك . لأنها تشمل كل ما تعلمته بالتجربة الطويلة والدراسة المستمرة . ويشير إلى أن آداب القدامى وقانونهم وطبهم قد بعثت من جديد ليستنير بها المحدثون فى كتاباتهم وأعمالهم ؛ وهو يقترح كذلك بعث مبادئ الحكمة القديمة ، وتطبيقها على السياسة المعاصرة . وهو لا يستمد فلسفته السياسية من التاريخ ، ولكنه يختار من التاريخ حوادث تؤيد النتائج التى قادته إليها تجاربه وأفكاره . ويأخذ أمثلته كلها تقريباً من ليڤى ، وتؤدى به سرعته أحياناً إلى إقامة حججه على الأقاصيص ، ويستعين فى بعض الأحيان بمقتبسات من پوليبيوس Polybius .

ولما سار بعض الخطى فى **أحاديثه** أدرك أنها ستطول أكثر مما يجب ؛ وأنها لن تتم إلا بعد زمن طويل ، فلاتفيد فى أن تكون هدية عملية لأحد الحاكمين من آل ميديتشى . لهذا قطع عمله ليكتب خلاصة تضم ما وصل إليه من النتائج ؛ لأن هذه تتاح لها فرصة لقراءتها أفضل من البحث المطول ، وتكون أعود عليه بصداقة الأسرة القوية التى تحكم وقتئذ (١٥١٣) نصف إيطاليا . وهكذا وضع كتاب **الأصول** Il principe (وهو العنوان الذى اختاره له) فى عدد قليل من شهور هذا العام . وكان ينوى إهداءه إلى جوليانو دى ميديتشى ، الذى كان يحكم فلورنس فى ذلك الوقت ، ولكن جوليانو توفى (١٥١٦) ، قبل أن يصمم مكيڤلى على إرسال الكتاب إليه ؛ ولهذا غير صيغة الإهداء وبعث به إلى لورنزو ، دوق أربينو ؛ الذى

لم يرسل إليه ينبئه بوصوله . وتداولت الأيدى المخطوط ، وكتبت منه عدة نسخ خلسة ، ولم يطبع إلا فى عام ١٥٣٢ بعد خمس سنين من موت المؤلف ، وأصبح من ذلك الحين من أكثر ما يعاد طبعه من الكتب فى أى لغة من اللغات .

وليس فى مقدورنا أن نضيف إلى ما وصف به نفسه إلا صورة له لا يعرف مصورها محفوظة فى معرض أفيزى . ويظهر فيها شخصاً نحيل الجسم ، شاحب الوجه ، غائر الخدين ، حاد العينين أسودهما ، رقيق الشفتين مطبوقهما ، تنم معارفه عن رجل تفكير أكثر مما هو رجل عمل ، له من الذكاء الحاد أكثر مما له من الإرادة الطيبة والوداعة . ولم يكن فى مقدوره أن يصبح دبلوماسياً صالحاً ، لأنه لم يكن يسعه أن يخفى دهاءه ، ولا أن يكون حاكماً قديراً لأنه كان مسرفاً فى عنفه ، يقبض على الأفكار بتعصب وعناد ، كما يقبض فى صورته على قفازيه اللذين يؤكدان مرتبته نصف الأرستقراطية ، وهذا الرجل الذى كثيراً ما كتب كما يكتب الفيلسوف الكلبى ، والذى كثيراً ما تنقلب شفتاه انقلاب الساخر المتهكم ، والذى اعتاد الكذب حتى جعل الناس يظنونه يكذب حين يقول الحق(٧٧) ، هذا الرجل كان فى خبيئة نفسه وطنياً شديد الحماسة ، يرى أن مصلحة الشعب هى القانون الأعلى ، ويخضع كل القوانين الأخلاقية لغاية واحدة هى توحيد إيطاليا وإنقاذها مما تعانيه .

وكان يتصف بكثير من الصفات غير المحبوبة ؛ منها أنه لما أقبلت الدنيا على بورچيا اتخذه مثلاً أعلى ، ولما انصرفت عنه سار وراء الجماهير ونددد « بالقيصر »(*) الساقط ووصفه بأنه مجرم و « عاص للمسيح »(٧٨) . ولما طرد آل ميديتشى لعنهم بأفصح عبارة ، فلما عادوا إلى الحكم لعق أحذيتهم ملتمساً منهم منصباً . ولم يكن يزور المواخير قبل الزواج وبعده فحسب ،

(*) سيزارى وقيصر لفظ واحد . (المترجم)

بل كان يبعث إلى أصدقائه بأوصاف مفصلة لمغامراته فيها(٧٩) وإن كثيراً من رسائله لتبدو فيها الغلظة والوقاحة واضحتين وضوحاً لم يجرؤ معه كاتب سيرته والمعجب به ، الذى أطال فى الترجمة له ، على نشرهما ، ولما قرب مكيفلى من سن الخمسين كتب يقول : « إن شباك كيوبد لاتزال تقتنصنى ؛ والطرق الوعرة لا تستنفد صبرى ، والليالى السوداء لاتوهن شجاعتى . . . إن عقلى كله لمتجه للحب اتجاهاً أحمد عليه ڤينوس »(٨٠) . تلك أشياء فى وسعنا أن نغفرها له . لأن الرجل لم يخلق لكى يقتصر على زوجة واحدة ؛ ولكننا لانستطيع أن نغفر له بمثل هذه السهولة عدم وجود كلمة حنان واحدة موجهة إلى زوجته فى كل ما بقى لدينا من رسائله وهو كثير ؛ وإن كان هذا مما يتفق مع سنة تلك الأيام .

ووجه قلمه البليغ فى هـــذه الأثناء إلى أنواع من التأليف متباينة ، وبز الأساتذة فى كل نوع منها . وكان منها رسالة فى فن الحرب L'arte della guerra) نشرها فى عام ١٥٢٠ ، وأعلن فيها من برجه العاجى للدول والقواد شرائع السلطة العسكرية والنجاح فقال إن الأمة التى تفقد الفضائل العسكرية أمة هالكة لا محالة . والجيش لا يحتاج إلى الذهب بل إلى الرجال ؛ لأن « الذهب وحده لا يأتى بالجند الصالحين على الدوام ، ولكن الجند الصالحين يأتون بالذهب »(٨١) ، والذهب ينساب إلى خزائن الأمة القوية ، ولكن القوة تفارق الأمة الغنيـــة لأن الثراء يعمل على الراحة والاضمحلال ؛ ولهذا يجب أن يظل الجيش مشغولا على الدوام ؛ فحرب صغيرة تشب من حين إلى حين تبقى العضلات العسكرية صالحة والجهاز الحربى صالحاً متأهباً . وسلاح الفرسان جميل إلا إذا واجهته الحراب القوية ؛ ويجب أن يعد هذا السلاح عصب الجيش وأساسه (٨٢) . والجنود المرتزقة عار يجلل إيطاليا ، ودليل على تراخيها وضعفها ، وسبب فى خرابها ؛ ومن واجب كل دولة أن يكون لها حرس وطنى من أهلها مؤلف من رجال يحاربون دفاعاً عن وطنهم وأرضهم .

وأراد مكيڤلى أن يجرب حظه فى القصص فكتب قصة تعد من أحب الروايات للشعب فى إيطاليا ، وهى قصة بيلفاجور أرتشدياڤولو Belfagor arcidiavolo ، التى تفيض بالفكاهة والهجاء يصبهما على الزواج . ثم تحول بعدئذ إلى كتابة المسرحيات ، فألف أهم مسلاة ظهرت على مسرح النهضة الإيطالى وهى مسرحية مندراجولا Mandragola . وتضرب مقدمة هذه الرواية نغمة جديدة إذ يجامل فيها النقاد مجاملة لا عهد لهم بها من قبل :

« إذا شاء أحد أن يبعث الخوف فى قلب المؤلف بالقدح فيه ، فإنى أحذره بأن المؤلف أيضاً يعرف كيف يقدح ، بل إنه بارع فى هذا الفن ، وأنه لا يحترم أحداً فى إيطاليا وإن كان ينحنى ويتذلل لمن هم أحسن لباساً منه(٨٣) » .

والمسرحية تكشف عن أخلاق عصر النهضة كشفاً يروع الإنسان ويذهله . والمكان الذى تقع فيه حوادثها هو مدينة فلورنس ، ومضمونها أن كليماكو Callimaco يسمع إنساناً يعرفه يمتدح جمال لكريدسيا زوجة نتشياس فيقرر أنه لا بد من أن يغويها ، وإن لم يكن قد رآها من قبل ، وإن لم يكن يقصد بإغوائها إلا أن ينام هادئاً مستريح البال . ويقلقه أن لكريدسيا تشتهر بتواضعها بقدر ما تشتهر بجمالها ، ولكن أمله يقوى حين يقال له إن نتشياس يألم من أنها لا تحمل . ويرشو كليماكو صديقاً له لكى يقدمه لنتشياس على أنه طبيب ، ويدعى أنه سيخلط له مزيجاً يجعل فى مقدور أية امرأة أن تحمل ، ولكنه يعرف مع الأسف الشديد أن أى رجل يضاجعها بعد أن تتناوله سيموت بعد قليل ، ويعرض عليه أن يقوم بهذه المغامرة المهلكة ، ويرضى نتشياس أن يحل هو محله متبعاً فى ذلك طيبة الخلق التقليدية التى يتصف به أشخاص القصص لمبتكريهم . غير أن لكريدسيا تناضل عن عفتها ؛ وتتردد فى أن ترتكب جريمتين فى ليلة واحدة هما جريمة الزنا والقتل لكن الرجاء لن يخيب كله ، ذلك أن أمها ، فى حرصها الشديد على أن يكون

لابنتها خلف ، ترشو راهباً فينصحها أثناء اعترافها بأن تنفذ الخطة ؛ وتخضع لكريدسيا ، وتشرب الدواء ، وتنام مع كليماكو ، وتحمل . وتختتم القصة خاتمة سعيدة لكل أشخاصها : فالراهب يطهر لكريدسيا ، ويبتهج نتشياس لأنه أصبح له ولد مشكوك فى بنوته ، ويستطيع كليماكو أن ينام . والمسرحية ممتازة فى بنائها ، بديعة فى حوارها ، قوية فى هجائها . وليس الذى يثير دهشتنا فيها هو ما موضوع الإغواء ، الذى طالما رددته المسالى القديمة حتى مللناه ، وليس هو ما تحتويه من تفسير الحب تفسيراً جسدياً شهوانياً ، بل هو المحور الذى تدور عليه وهو استعداد الراهب لأن يحلل الزنا نظير خمسة وعشرين دوقة ؛ إن المسرحية قد مثلت فى عام ١٥٢٠ بنجاح عظيم أمام ليو العاشر . وقد بلغ من سرور البابا بها أن طلب إلى الكردنال جوليو ده ميديتشى أن يعهد إلى مكيڤلى بعمل من نوع التأليف فاقترح جوليو أن يكون هذا العمل هو كتابة تاريخ لفلورنس وعرض عليه فى نظير ذلك ثلثمائة دوقة (٣,٧٥٠ ؟ دولاراً) .

وكتب التاريخ فعلا (١٥٢٠ — ١٥٢٥) وكاد يحدث فى فن كتابة التاريخ ثورة لا تقل حدة عن الثورة التى أحدثها فى الفلسفة السياسية كتاب **الأمير** . ولسنا ننكر أنه كانت فى الكتاب عيوب أساسية خطيرة : ذلك أن السرعة التى صدر بها جعلته عديم الدقة ، وأنه نقل فقرات كبيرة عن المؤرخين السابقين ، وأن النزاع بين الأحزاب كان يلقى فيه من الاهتمام أكثر مما تلقاه الأنظمة ، وأنه أغفل التاريخ الثقافى إغفالا تاماً ، كما أغفله المؤرخون كلهم تقريباً قبل أيام ڤلتير . ولكنه كان أول تاريخ كبير كتب باللغة الإيطالية ؛ وكانت لغته الإيطالية هذه واضحة ، جزلة ، خالية من التعقيد ؛ وقد رفض الخرافات التى كانت فلورنس تجمل بها منشأها ؛ وتخلى عن الطريقة المألوفة القديمة وهى تأريخ الحوادث سنة فسنة ، وعمد بدلا منها إلى الرواية المنسجمة المتصلة المنطقية ؛ ولم يكن يعالج الحوادث

فحسب . بل كان يبحث فى أسبابها ونتائجها ، وأفاض على فوضى السياسة الفلورنسية تحليلا للمنازعات القائمة بين الأسر ، والطبقات ، والمصالح يكشف عنها ويوضحها . وقد جعل محور القصة موضوعين يوحدان بين أجزائها : أولهما أن البابوات قد أبقوا إيطاليا مشتتة منقسمة على نفسها لكى يحافظوا على استقلال البابوية فى الشئون الزمنية ، وثانيهما أن ما حدث فى إيطاليا من تقدم عظيم كان فى عهد الأمراء أمثال ثيودريك ، وكوزيمو ، ولورندسو . ومما يدل على شجاعة المؤلف ، وكرم البابا من الناحيتين العقلية والمالية أن يكتب كتاباً بهذه النزعة رجل يسعى للحصول على المال من البابا ، وأن يرضى البابا كلمنت السابع بأن يهدى إليه الكتاب دون أن يشكو مما جاء فيه .

وشغل **تاريخ فلورنس** مكفلى خمس سنين ، ولكنه لم يحقق ما كانت تتوق إليه نفسه وهو عودته إلى السباحة فى مجرى الساسة الموحل . ولما أن خسر فرانسس الأول كل شىء عدا شرفه وحياته فى پاڤيا (١٥٢٥) ، وألفى كلمنت السابع نفسه عاجزاً ضعيفاً أمام شارل الخامس ، بعث مكيڤلى برسائل إلى البابا وإلى چوتشياردينى يوضح ما يستطاع عمله لصد الفتح الأسبانى — الألمانى الذى كان يتهدد إيطاليا ؛ ولعل اقتراحه بأن يمد البابا چيوڤنى دلى باندى نيرى Giovanni delle Bande Nere بالمال ، والسلطان ، والسلاح كان من شأنه أن يؤجل المصير المحتوم إلى حين . ولما مات چيوڤنى ، وزحفت الجحافل الألمانية على فلورنس الحليفة الغنية لفرنسا والمجزية لمن ينهبها ، أسرع مكيڤلى إلى المدينة ، واستجاب إلى ما طلبه كلمنت فوضع تقريراً عن الطريقة التى يمكن بها إعادة أسوارها بجعلها صالحة للدفاع عنها . وفى الثامن عشر من مارس سنة ١٥٢٦ اختارته الحكومة الميديتشية ليرأس لجنة من خمسة « أمناء على الأسوار » . ليقوموا بهذه المهمة . غير أن الألمان مروا بفلورنس واتجهوا إلى رومة . ولما نهبت هذه المدينة ، وأسر الغوغاء كلمنت ، طرد الحزب الجمهورى فى فلورنس آل ميديتشى مرة أخرى،

من المدينة وأعادوا إليها الحكم الجمهورى . (١٦ مايو سنة ١٥٢٧) . وابتهج مكيڤلى لهذا العمل وطالب بمنصبه القديم منصب أمين مجلس العشرة الحربى ، وكان يرجو أن يعود إليه ؛ لكنه لم يجب إلى طلبه (١٠ يونية سنة ١٥٢٧) ؛ ذلك أن صلابة آل ميديتشى قد أفقدته عطف الجمهوريين ومعونتهم .

ولم تطل حياته بعد هذه الصدمة ؛ فقد خبت فيه جذوة الحياة والأمل وتركته جسداً بلا روح . وانتابه المرض ، وكان يشكو من تقلصات شديدة فى المعدة ؛ واجتمع حول فراشه زوجته ، وأبناؤه ، وأصدقاؤه ؛ واعترف أمام قسيس ومات ولما يمض على رفض طلبه غير اثنى عشر يوماً ، وخلف أسرته فى الدرك الأسفل من الفاقة ، وترك إيطاليا التى كان يعمل جاهداً لتوحيدها خراباً يبابا . ودفن فى كنيسة الصليب المقدس ، حيث أقيم له نصب جميل نقشت عليه هذه العبارة : « ليس فى مقدور أى مديح أن يوفى هذا الاسم العظيم حقه » — وهو قول يشهد بأن إيطاليا التى توحدت آخر الأمر قد تجاوزت عن سيئاته وذكرت له أحلامه .

٣ — الفيلسوف

ولنبحث الآن الفلسفة « المكيڤلية » بأكثر ما نستطيع من النزاهة فنقول إننا لا نجد عند غير مكيڤلى مثل ما نجده عنده من الاستقلال فى الرأى ومن التفكير الجرىء المجرد من الخوف فى عالم الأخلاق والسياسة ، وإن من حق مكيڤلى أن يدعى أنه قد شق طرقاً جديدة فى بحار لم يكد يطرقها أحد قبله .

وفلسفة مكيڤلى تكاد تكون فلسفة سياسية خالصة ، ليس فيها شىء من فلسفة ما بعد الطبيعة ، ولا اللاهوت ، ولا الإيمان أو الكفر ، ولا بحث فى الجبرية أو القدرية ؛ وحتى الفلسفة الأخلاقية نفسها لا تلبث أن تنحنى

جانباً. لأنها بوصفها فلسفة تابعة للسياسة ، وتكاد تكون أداة لها . وهو يفهم السياسة على أنها الفن العالى الذى يراد به إيجاد دولة ، أو الاستيلاء عليها ، أو حمايتها ، أو تقويتها ؛ وهو يهتم بالدولة لا بالإنسانية عامة ؛ ولا يرى فى الأفراد إلا أنهم أعضاء فى دولة ، إلا إذا نظر إليهم من حيث أنهم يساعدون على تقرير مصيرها ؛ وهو لا يعنى قط باستعراض الأفراد على مسرح الزمان . وهو يريد أن يعرف لم تنشأ الدول وتسقط ، وكيف يمكن تأخير اضمحلالها المحرم إلى أبعد ما يستطاع من الوقت .

وهو يرى أن فلسفة التاريخ وعلم الحكم أمكن وجودهما لأن الطبيعة البشرية لا تتبدل أبداً :

« يقول الحكماء ، ولهم الحق فيما يقولون ، إن من شاء أن يتنبأ بالمستقبل فعليه أن يرجع إلى الماضى ؛ لأن الأحداث البشرية تشابه دائماً أبداً أحداث الأزمنة الماضية . ومنشأ هذا التشابه أنها ثمرة أعمال خلائق كانوا ، ولا يزالون ؛ وسيكونون على الدوام ، تحركهم نفس العواطف والانفعالات ، ولهذا فإن هذه العواطف والانفعالات لابد أن تكون النتائج نفسها[٨٤] . . . وأنا أعتقد أن العالم كان هو بعينه على الدوام ، وأنه كان يحتوى دائما كل ما يحتويه الآن من خير وشر ، وإن كان هذا الخير وذاك الشر يختلف توزيعهما بين الأمم باختلاف الأوقات »[٨٥] .

وظاهرتا نشأة الحضارات والدول واضمحلالها من أكثر الظواهر المتتابعة المنتظمة دلالة فى التاريخ . وهنا يواجه مكيفلى مشكلة معقدة غاية التعقيد بقانون بسيط غاية البساطة فيقول : « الشجاعة تنتج السلم ؛ والسلم تنتج الراحة ، والراحة تستتبع الفوضى ، والفوضى تؤدى إلى الخراب . ومن الفوضى ينشأ النظام ، والنظام يؤدى إلى الشجاعة (virtu) ، ومن هذه ينال المجد والحظ الحسن . ومن أجل هذا قال الحكماء إن عهد السمو الأدنى يأتى فى أعقاب التفوق الحربى ؛ وإن . . . المحاربين العظام ينشئون قبل

الفلاسفة » (٨٦) . وقد تكون هناك أسباب أخرى لنشأة الأمم واضمحلالها غير الأسباب العامة وهى عمل القادة والزعماء من الأفراد وتأثيرهم ؛ من ذلك أن مطامع الحاكم المتطرفة ، التى تعميه فلا يرى أن موارده لا تكفى لتحقيق أغراضه ، قد تكون سبباً فى خراب دولته إذ تجرها إلى الأشتباك فى الحرب مع دولة أعظم منها قوة . وللحظ والمصادفات كذلك أثر فى قيام الدول وسقوطها . « فالحظ هو الذى يتحكم فى نصف أعمالنا ، ولكنه يترك لنا مع ذلك القدرة على توجيه النصف الآخر »(٨٧) . وكلما كثر نصيب الإنسان من الشجاعة قل خضوعه لتقلبات الحظ واستسلامه له .

وتاريخ دولة ما يتبع قوانين عامة ، يحددها ما تنطوى عليه طبيعة الناس من خبث وشر . والناس كلهم بطبيعتهم مقتنون ، مخادعون ، مخاصمون ، قساة ، فاسدون .

« ومن أراد أن ينشئ دولة ، ويضع لها قوانين ، فليفترض من بادئ الأمر أن الناس جميعاً أشرار ، مستعدون على الدوام لأن يكشفوا عن خبث طويتهم إذا وجدوا الظروف الملائمة لهذا العمل ؛ فإذا ما ظلت ميولهم الخبيثة مختفية إلى حين ، فيجب أن يعزى اختفاؤها هذا إلى سبب غير معروف ؛ ومن واجبنا أن نفترض أنها لم تجد الظروف الملائمة للكشف عن نفسها ؛ ولكن الزمن . . . لن يعجزه الكشف عنها . . . والرغبة فى الاقتناء من الغرائز الفطرية العامة فى واقع الأمر ، والناس جميعاً يقتنون حين يستطيعون ؛ ولهذا فإنهم يمدحون على ذلك ولا يلامون عليه »(٨٨) .

وإذا كان الأمر كذلك فإن الطريقة الوحيدة لجعل الناس أخياراً — أى قادرين على أن يعيشوا بنظام فى مجتمع — هى أن يطبق عليهم القسر ، والخداع ، والاعتياد واحداً بعد واحد . ومن هذا تنشأ الدولة : تنظيم القوة على يد الجيش والشرطة ، ووضع القواعد والقوانين ، وتكوين العادات تدريجاً للاحتفاظ بالزعامة والنظام فى الجماعة البشرية . وكلما كانت

الدولة أكثر نماء . قلت الحاجة إلى استخدام القوة أو ظهورها فيها ؛ واكتفى بدلا منها بالتعليم وغرس العادات ، لأن الناس يكونون فى يدى المشرع أو الحاكم القدير أشبه بالصلصال اللين فى يدى المثال .

والدين خير وسيلة لتعويد الناس الذين فطروا على الشر الخضوع إلى القانون والنظام . ويكتب مكيڤلى الذى يسميه پاولو چيوڤيو Paolo Giovio أحد المعجبين به الكافر الهجاء[٨٩] ، عن الدين حماسة بالغة يقول :

« لم تر الآلهة أن الشرائع التى وضعها رميولوس كافية لرومة ، وإن كان هذا الأمير هو الذى أنشأها . . . ، ولهذا أوحت إلى مجلس الشيوخ الرومانى أن يختار نوما پمپليوس Numa Pompilius خليفة له . . . . ووجد نوفا شعباً متوحشاً أشد التوحش ، أراد أن يغرس فيه عن طريق فنون السلم عادة الطاعة المدنية ، فلجأ إلى الدين الذى رآه أقوى مؤيد للمجتمع المدنى وألزمه ، فأقامه على أسس بلغ من قوتها أن مضت قرون طوال دون أن يوجد فى مكان ما خوف من الآلهة أكبر مما كان فى هذه الجمهورية . وقد يسر هذا تيسيراً كبيراً جميع المشروعات التى حاول القيام بها مجلس الشيوخ أو كبار أعضائه . . . . وقد ادعى نوما أنه تحدث إلى إحدى الحور ، وأنها أملت عليه كل ما يريد أن يقنع به الناس . . . والحق أنه لم يوجد قط مشرع عظيم . . . لم يلجأ إلى القوة الإلهية ، وإلا لما أطاع الناس شرائعه ؛ لأن ثمة شرائع صالحة كثيرة يدرك المشترع الحكيم أهميتها ، ولكن أسباب وضعها لا تتضح للناس وضوحاً يكفى لأن يمكنه من إقناع غيره من الناس بإطاعتها ؛ وهذا هو السبب الذى يجعل العقلاء من الناس يلجئون إلى السلطة الإلهية ليتغلبوا على هذه الصعوبة[٩٠] . . . . واتباع الأنظمة الدينية هو سبب عظمة الجمهوريات ؛ وإهمال هذه النظم يؤدى إلى خراب الدول ؛ ذلك أنه إذا انعدم من بلد ما خوف الله ، قضى على هذا البلد لا محالة ؛ إلا إذا دعمه خوف الأمير وهو خوف يمكن أن يعوض فترة من الزمن ما ينقص

هذا البلد من خشية الله . لكن حياة الأمراء قصيرة . . . . (٩١) .

« وإذا أراد الأمراء أن يبقوا على أنفسهم . . . وجب عليهم قبل كل شيء أن يحافظوا على نقاء الشعائر الدينية ، وأن ينظروا إليها بالاحترام اللائق بها ؛ وهذا بعينه يصدق على الجمهوريات ، فهى لا بقاء لها إلا إذا حافظت على هذا النقاء ووجهت إلى تلك الشعائر هذا الاحترام نفسه(٩٢) . . . وأكثر من يستحق الثناء ممن نالوا هذا الثناء هم الذين أنشأوا الأديان وأقاموها . ويليهم فى هذا الدين أقاموا الجمهوريات أو الممالك . وأعظم الناس بعد هؤلاء وأولئك هم الذين قادوا الجيوش ووسعوا أملاك بلادهم . وقد نضيف إليهم رجال الأدب . . . وعكس هذا أيضاً صحيح . فالذين يهدمون صرح الدين ، ويقضون على الجمهوريات والممالك والذين هم أعداء الفضيلة والآداب ، أولئك يجللهم العار وتصب عليهم اللعنات من الناس أجمعين »(٩٣) .

وبعد أن ارتضى مكيڤلى الدين بوجه عام انتقل إلى الدين المسيحى فأخذ يوجه إليه أشد النقد لأنه عجز عن إيجاد مواطنين طيبين . ذلك أنه حول أكثر ما يجب تحويله من العناية إلى السماء ، وأضعف الناس بأن أخذ يدعوهم إلى الفضائل النسوية وفى ذلك يقول :

« إن الدين المسيحى يدعونا إلى الاستخفاف بحب الدنيا ، ويجعلنا أكثر رقة وليناً . أما القدماء فكانوا عكس هذا ، كانوا يجدون أعظم أسباب بهجتهم فى هذا العالم . . . ولم يكن دينهم يقدس إلا الذين يتوج هاماتهم مجد هذا العالم الأرضى ، كقواد الجيوش ، ومؤسسى الجمهوريات ؛ على حين أن ديننا نحن قد مجد الوادعين الذين يقضون زمانهم فى التأمل والتفكير بدل أن يمجد رجال العمل . وقد جعل هذا الدين أعلى درجات الخير الذلة ، وضعف العزيمة ، واحتقار الأمور الدنيوية ؛ أما الدين القديم فكان يجعل أعلى درجات الخير عظم العقل ، وقوة الجسم ، وكل ما يبعث فى الناس

الإقدام والجرأة . . . . ومن أجل هذا خر العالم صريعا أمام الأشرار ، فقد وجد هؤلاء الناس أكثر استعداداً للخضوع إلى الضربات طمعاً منهم فى دخول الجنة بدل أن يردوا عليها بمثلها[٩٤] . . . . .

« ولو أن الدين المسيحى قد احتفظ به حسب القواعد التى وضعها له مؤسسه ، لكانت الدول والبلاد المسيحية أقوى اتحاداً وأكثر سعادة مما هى الآن . وهل ثمة أدل على ضعفها وانحلالها من أن أقرب الشعوب إلى الكنيسة الرومانية ، وهى رأس هذا الدين ، أقلها تديناً ؛ ومن يبحث المبادئ التى يقوم عليها هذا الدين ويرى البون الشاسع بين هذه المبادئ وبين أساليبها الحاضرة وشعائرها ، يحكم من فوره أن انهيار هذا الدين أو مصيره المحتوم آت غير بعيد[٩٥] . . . . ولعل الدين المسيحى كان يقضى عليه قضاء لا مرد له بسبب ما فيه من فساد لو لم يرد إليه القديسان فرانسس ودمنيك مبادئه الأصيلة . . . وإذا شئنا أن نضمن للطوائف أو الجمهوريات الدينية حياة أطول وأبقى ، وجب أن نرجع بها مراراً وتكراراً إلى مبادئها الأولى الأصيلة[٩٦] » .

ولسنا نعرف هل كتبت هذه الألفاظ قبل أن تصل إلى إيطاليا أنباء الإصلاح الدينى أو بعد وصولها إليها .

ويختلف خروج مكيفلى على المسيحية عن خروج ڤلتير ، وديدرو ، وپين Paine ، وداروِن ، واسپنسر ، وريْنان عليها . ذلك أن هؤلاء الرجال كانوا يرفضون لاهوت المسيحية ، ولكنهم يحتفظون بالقانون المسيحى الأخلاقى ويعجبون به . وظلت هذه الحال قائمة إلى أيام نتشة ولطفت « حدة النزاع القائم بين الدين والعلم » . أما ميكيفلى فلا يشغل باله بالعقائد الدينية وبعدها عن المعقول ؛ فهو يرى هذا البعد أمراً طبيعيا ويأخذه على أنه قضية مسلم بها ؛ ولكنه يقبل اللاهوت المسيحى قبولا حسناً بحجة أن نظاماً ما من المعتقدات التى فوق الطبيعة هو دعامة لا غنى عنها للنظام الاجتماعى . أما الذى يرفضه من المسيحية رفضاً با[illegible]ادئها الأخلاقية . و[illegible]راه من

obeikandi.com

أن الصلاح والخير هما الرقة ، والذلة ، والاستسلام وعدم المقاومة ، وحبها للسلم ، وتنديدها بالحرب ؛ وافتراضها أن الدول والأفراد مرتبطون بقانون أخلاقى واحد . وهويفضل عن هذه المبادئ القانون الأخلاقى الرومانى ، القائم على المبدإ القائل إن سلامة الشعب أو الدولة هى القانون الأعلى : « وحيث يكون الأمر أمر مصلحة بلادنا وخيرها ، وجب علينا ألا نقبل البحث فى العدل أو الظلم ، والرحمة أو القسوة ، وما هو خليق بالثناء أو الازدراء ؛ بل يجب أن نسلك كل سبيل ينقذ حياة الأمة وحريتها وننحى كل ما عدا هذا جانباً »(٩٧) . ذلك أن الأخلاق بوجه عام إن هى إلا قانون للسلوك وضع لأفراد المجتمع أو الدولة لحفظ النظام الجماعى ، والوحدة ، والقوة ؛ وإن حكومة تلك الدولة لتعجز عن أداء واجبها ، إذا كانت وهى تدافع عن الدولة ، تسمح بأن تقيد نفسها بالقانون الأخلاقى الذى يجب عليها أن تغرسه فى نفوس شعبها . ومن ثم فإن الدبلوماسى غير مقيد بالقانون الأخلاقى الذى يتقيد به شعبه . « فإذا ما أدانه عمل قام به وجب أن تغفر له نتيجة هذا العمل ذنبه »(٩٨) ؛ ذلك أن الغاية تبرر الوسيلة . « وما من رجل صالح يلوم رجلا غيره يحاول أن يدافع عن بلاده ، أيا كانت السبيل التى يسلكها لهذا الدفاع »(٩٩) . فضروب الغش ، والقسوة ، والجرائم التى يرتكبها الرجل فى سبيل الاحتفاظ بدولته ، كلها « غش شريف » و« جرائم مجيدة » (١٠٠) . ومن ثم فإن رميولوس كان على حق حين قتل أخاه ، لأن الحكومة الناشئة كانت تتطلب الوحدة ، وإلا مزقت إرباً(١٠١) . وليس ثمة « قانون طبيعى » أو « حق » متفق عليه من الناس جميعاً ؛ والسياسة إذا قصد بها فن الحكم يجب أن تكون مستقلة عن الأخلاق استقلالا تاماً .

وإذا ما طبقنا هذه المبادئ على قانون الحرب الأخلاقى ، فإن مكيفلى واثق كل الثقة من أنها تجعل نزعة السلام المسيحية سخفاً وخيانة . ذلك أن الحرب تناقض وصايا موسى كلها تقريباً ؛ فهل تجيز القسم ، والكذب ،

والسرقة ، والقتل ، وارتكاب الزنا آلاف المرات ، ولكنها إذا ما حافظت على المجتمع أو كانت سبباً فى تقويته فهى خير . وإذا ما وقفت الدولة عن التوسع أخذت الاضمحلال ، وإذا فقدت الرغبة فى الحرب فقل عليها السلام . والسلم إذا طالت فوق ما يجب تؤدى إلى الضعف والتفكك ، ولذلك كانت حرب تدور بين الفينة والفينة مقوية للقومية ، تعيد للأمة النظام ، والشدة ، والوحدة . ولهذا فإن الرومان فى عهد الجمهورية كانوا دائماً مستعدين للحرب ، فإذا رأوا أنهم مقبلون على نزاع مع دولة أخرى ، لم يفعلوا شيئاً يجنبهم الحرب ؛ بل أرسلوا جيشاً ليهاجم فليب فى مقدونية وأنطونيوخوس الثالث فى بلاد اليونان ولم ينظروا حتى يأتى هذان المليكان بشرور الحرب إلى أرض إيطاليا(١٠٢) . ولم يكن الرومانى يرى أن الفضيلة هى الذلة ، أو الرقة ، أو السلام ، بل كان يرى أنها هى القوة ، والرجولة ، والبسالة ، مضافة إلى النشاط والذكاء . وهذا ما يعنيه مكيڤلى بلفظ virtu .

ثم ينتقل مكيڤلى من هذه النظرة نظرة الحاكم المتحرر من القيود الأخلاقية ليواجه ما كان يبدو له أنه هو المشكلة الأساسية فى أيامه : وهى أن يحصل لإيطاليا على الوحدة والقوة اللتين لا غنى لها عنهما لنيل حريتها الجماعية . وهو يرى بعين المقت ما يسود بلاده من انقسام ، واضطراب ، وفساد ، وضعف ؛ وهنا نرى ما كان فى أيام پترارك جدّ نادر — نرى رجلا لا يؤدى تفانيه فى حب قطره إلى أى نقض فى حبه مدينته . فإذا ما بحث عن الذى تقع عليه تبعة بقاء إيطاليا مقطعة الأوصال ، ضعيفة بسبب ذلك أمام العدو ، قال :

لا تستطيع أمة من الأمم أن تكون متحدة وسعيدة إلا إذا كانت تطيع حكومة واحدة سواء كانت جمهورية أو ملكية ، كما هى الحال فى فرنسا وأسپانيا ؛ والسبب الوحيد الذى يمنع إيطاليا من أن تكون هذه حالها هو الكنيسة . ذلك أنها وقد حصلت لنفسها على سلطان زمنى واحتفظت

بهذا السلطان ، لم تؤت فى يوم من الأيام من القوة أو الشجاعة ما يكفى لأن يجعلها قادرة على الاستيلاء على بقية البلاد وفرض سيادتها الوحيدة على إيطاليا بأجمها (١٠٣) .

وهنا تبدو لنا فكرة جديدة : تلك هى أن مكيڤلى لا يهاجم الكنيسة لأنها تدافع عن سلطتها الزمنية ، بل يهاجمها لأنها لم تستخدم جميع مواردها لإخضاع إيطاليا كلها لحكمها السياسى . ومن أجل هذا أعجب مكيڤلى بسيزارى بورچيا فى إمولا وسنجاليا لأنه ظن أنه وجد فى هذا الشاب القاسى فكرة إيطاليا المتحدة وأملها ؛ وكان على استعداد لأن يبرر أية وسيلة يستخدمها آل بورچيا ليحققوا بها ذلك الهدف الأسمى النبيل . ولربما كان خروجه على سيزارى بورچيا ، حين خرج عليه فى رومة عام ١٥٠٣ ، بسبب غضبه من أن معبوده هذا قد سمح بأن تقضى كأس من السم (كما كان مكيڤلى يظن) على هذا الحلم الذيد .

وكان قد مضى على إيطاليا قرنان من الزمان وهى مقسمة مشتتة ، سببا لها من الضعف والانحلال الاجتماعى ما لم يكن لينجيها منهما (فى رأى ميكيڤلى)

(*) كتب جوتشياردينى تعليقاً هاماً على هذه الفقرة قال فيه : « صحيح أن الكنيسة قد حالت بين إيطاليا وبين اجتماعها فى دولة واحده ، ولكنى لا أعرف أخير هذا أم شر . نعم إنها لو أصبحت جمهورية واحدة لكان هذا بلا ريب سبباً فى ارتفاع اسم إيطاليا إلى ذروة المجد ، ولكان فيه أعظم النفع لعاصمة تلك الجمهورية ، ولكنه كان يؤدى حتما إلى خراب جميع ما عداها من المدن . وما من من شك أيضاً فى أن انقسامنا قد جر علينا كثيراً من الكوارث ، وإن كان من واجبنا أن نذكر أن غزوات البرابرة قد بدأت فى أيام الرومان أى فى نفس الوقت الذى كانت فيه إيطاليا متحدة . ولقد أفلحت إيطاليا المنقسمة على نفسها فى أن تضم عدداً كبيراً من المدن الحرة ، حتى لأعتقد أنها لو اتحدت فى جمهورية واحدة لحرمت عليها هذه الجمهورية من الشقاء أكثر مما أنالته إياها من السعادة .... لقد كانت هذه البلاد تتوق إلى الحرية على الدوام ، ولهذا فإنها لم تتحد قط تحت سلطان حكومة واحدة » — Consiperazioni interno ai Discorsi di machiavelli i, 12 .(١٠٤)

إلا أشد الوسائل عنفاً . فلقد عم الفساد الحكومات والشعب ، وحلت الرذائل الشهوانية محل الروح الحربية والمهارة العسكرية ؛ وعهد المواطنون إلى غيرهم — كما عهد إليهم أيام احتضار رومة القديمة — عهدوا إلى الجيوش المرتزقة كما عهدوا أولئك إلى البرابرة — أن يدافعوا عن مدنهم وأرضهم ؛ وماذا يهم تلك العصابات المأجورة أو يهم زعماءها من وحدة إيطاليا ؟ إنهم يعيشون ويتخمون بسبب انقسامها . لقد اتفقوا فيما بينهم على أن يتخذوا الحرب لعبة لا تقل لهم أمنا عن السياسة ؛ فجنودهم لا يقبلون بحال من الأحوال أن يعرضوا أنفسهم للقتل ، وإذا ما التقوا بالجيوش الأجنبية ولوا الأدبار ، وأنزلوا إيطاليا منزلة الاسترقاق والاحتقار »(١٠٥) .

وإذن فمنذا الذى يوحد إيطاليا ؟ وكيف السبيل إلى هذه الوحدة ؟ ليست السبيل إليها هى الإقناع بالوسائل الدمقراطية ؛ ذلك أن الرجال متطرفون فى نزعتهم الانفرادية ، وفى حزبيتهم ، وفسادهم ، مما يحول بينهم وبين قبول الوحدة قبولا سليماً ، ومثلهم فى ذلك مثل المدن نفسها ؛ ولهذا فإن هذه الوحدة لابد أن تفرض عليهم بجميع وسائل السياســة والحرب ؛ ولا يستطيع أحد أن يفعل هذا غير الطاغية القاسى الذى خلا قلبه من الرحمة ؛ والذى لا يسمح لضميره بأن يجعل منه إنساناً جباناً ، بل يضرب بيد من حديد ، ويجعل هدفه العظيم يبرر كل ما يلجأ إليه من الوسائل .

ولسنا واثقين من أن هذا هو المزاج الذى ألف به كتاب **الأمير**. وشاهد ذلك أن مكيڤلى كتب إلى صديق له فى عام ١٥١٣ أى فى العام الذى يبدو أنه شرع يكتب فيه هذا الكتاب يقول : « إن فكرة الوحدة الإيطالية فكرة مضحكة . ذلك أنه حتى لو استطاع رؤساء الدولة الإيطالية أن يتفقوا ، فإنا ليس لدينا من الجنود من لهم شىء من القيمة غير الجنود الأسپان . يضاف إلى هذا أن الشعب لا يمكن أن يتفق فى يوم من الأيام مع الزعماء(١٠٦) . لكن حدث فى ذلك العام نفسه عام ١٥١٣ أن جلس

ليو العاشر على كرسى البابوية ، واتحدت فلورنس وروما تحت سلطان آل ميديتشى بعد أن ظلتا عدوتين زمناً طويلا ، ولما أن بدل مكيڤلى صيغة إهداء كتابه فجعلها للورندسو ، دوق أربينو ، كانت هذه الدولة أيضاً قد سقطت فى يد آل ميديتشى ، ولم يكن الدوق الجديد قد تجاوز الرابعة والعشرين من عمره فى عام ١٥١٦ ، وكان قد أظهر غير قليل من الطموح البسالة ؛ وكان من حق مكيڤلى أن نسامحه إذا نظر إلى هذا الشاب المتهور على أنه هو الذى يستطيع بهداية ليو ودپلوسيته (واتباع تعاليم مكيڤلى) أن يحقق ما بدأه سيزارى بورچيا بإرشاد ألكسندر السادس — أى أن يقود الدول الإيطالية ، أو فى القليل الدول الواقعة منها شمال ناپلى مع استبعاد دولة البندقية المتكبرة ، بعد ضمها فى اتحاد له من القوة ما يفل عزيمة الغزاة الأجانب . ولدينا من الشواهد ما يدل على أن هذا كان أمل ليو أيضاً . وإن إهداء كتاب **الأمير** لآل ميديتشى لدل على أن المؤلف كان يظن مخلصاً أن هذه الأسرة هى التى يمكن أن تحقق وحدة إيطاليا . وإن كان الغرض الأول من هذا الإهداء فى أغلب الظن هو أن يكون وسيلة لإيجاد منصب يهتم بشغله مؤلفه .

وكان شكل كتاب الأمير هو الشكل التقليدى المألوف : فقد أفرغ فى القالب الذى أفرغت فيه مائة من الرسائل فى العصور الوسطى خاصة بحكم الأمراء ، وسار على الطريقة التى اتبعت فى هذه الرسائل . أما فى محتوياته فقد كان ثورة لا شك فيها . فلم توجه فى الكتاب دعوة مثالية إلى أمير من الأمراء ليكون قديساً ، ولم يطلب إليه أن يطبق ما جاء فى **موعظة الجبل** على مشاكل العروش ؛ بل نراه على عكس ذلك يقول :

« لما كنت أقصد أن أكتب شيئاً يفيد من يفهمه ، فإنه يبدو لى أن أتبع حقيقة الأمور الصحيحة من أن أجرى وراء الخيال . لقد صور كثيرون جمهوريات وإمارات لم تعرف أو ترى فى يوم من الأيام ؛ لأن البعد شاسع

بين الطريقة التى يعيش بها الإنســـان والطريقة التى يجب أن يعيش بها ، ومن أجل ذلك فإن من يهمل ما يفعل فى سبيل ما يجب أن يفعل يجر على نفسه الخراب بأسرع ما يحتفظ لنفسه بالبقاء ؛ وإن الرجل الذى يريد أن يعمل حسب ما يجهر بأنه هو الفضيلة لا يلبث أن يلقى الوبال بين ما يحيط به من السرور من كل جانب . ومن ثم كان لابد للأمير الذى يريد أن يحتفظ بمركزه أن يعرف كيف يرتكب الخطأ وأن يفيد منه أولا يفيد حسبما تدعو إليه الحاجة(١٠٧) .

ولهذا فإن من واجب الأمير أن يفرق فى قوة وحزم بين المبادئ الأخلاقية ومطالب الحكم ، أى بين ضميره الخاص والصالح العام ؛ وأن يكون مستعداً لأن يعمل من أجل الدولة ما يسمى شراً فى علاقة الأفراد بعضهم ببعض . ويجب عليه أن يزدرى أساليب التردد والضعف التى لا تبلغ الإنسان الغرض كاملا ؛ والأعداء الذين لا يستطاع كسب صداقتهم يجب القضاء عليهم ؛ ومن واجب الأمير أن يقتل من ينازعونه عرشه . ولا بد له أن ينشئ جيشاً قوياً لأن الحاكم لايستطيع أن يتحدث بصوت أعلى من صوت مدافعه . ومن واجبه أن يحافظ دائماً على صحة جنوده ، وحسن نظامهم ، وعدتهم ، وأن يعد نفسه للحرب بأن يعرض نفسه فى كثير من الأحيان لصعاب الصيد وأخطاره . وعليه فى الوقت نفسه أن يدرس فنون الدبلوماسية ؛ لأنه يستطيع أن يحصل بالمكر والخداع فى بعض الأحيان أكثر مما يستطيع أن يحصل عليه بالقوة وقد لا يكلفانه ما لا تكلفه . ويجب عليه ألا يتمسك بالمعاهدات إذا أصبحت تجلب الضرر للأمة ؛ « والسيد العاقل لا يستطيع ولا يجب عليه أن يحافظ على العهد إذا كان فى وسع أعدائه أن يتخذوا محافظته هذه سلاحا لإيذائه ، وإذا ما زالت الأسباب التى جعلته يقطع هذا العهد على نفسه »(١٠٨) .

ولا غنى للأمير عن قسط من تأييد الشعب . ولكن إذا كان لا بد

للحاكم أن يختار بين أن يخافه الشعب دون أن يحبه ، وبين أن يحبه دون أن يخافه وجب عليه أن يضحى بالحب(١٠٩) ؛ لكن حكم الجماهير بالرأفة والرقة أسهل من حكمها بالغطرسطة والقسوة(١١٠) . . . وشاهد ذلك أن الأباطرة تيتوس ، ونيرفا ، وتراچان ، وهدريان ، وأنطونينوس ، وماركس أورليوس لم يحتاجوا إلى الحرس البريتورى ولا إلى الفيالق الحربية لحمايتهم ، لأنهم كانوا يحتمون بسلوكهم الطيب ، وبإخلاص شعبهم وبحب مجلس الشيوخ لهم (١١١) . ومن الوسائل التى يحصل بها الأمير على تأييد الشعب أن يناصر الفنون والعلوم ، وأن يهيئ له الحفلات والألعاب العامة . ويكرم أهل الحرف بشرط أن يحتفظ على الدوام بجلال مركزه(١١٢) . ويجب عليه ألا يهب الناس الحرية ، ولكن من واجبه أن يمتعهم قدر المستطاع بمظاهر الحرية . وعليه أن يعامل المدن التابعة له — كمدينتى أرتسو وپيزا التابعتين للبندقية ، بالشدة والعنف ، بل وبالقسوة فى بادئ الأمر فإذا ما استقرت له الأمور وأطاعه أهل هذه المدن ، أمكنه أن يجعل خضوعهم له أمراً عادياً مألوفاً بأساليب اللطف والمجاملة لأن القسوة إذا طالت وعمت أهل المدن الخاضعة كانت بمثابة انتحار من يلجأ إليها(١١٣) .

وعلى الحاكم أن ينشر الدين وأن يظهر هو نفسه بمظهر الرجل المتدين أيا كانت عقائده الخاصة(١١٤) . والحق أن تظاهر الأمير بالفضيلة أهم وأفيد له من أن يكون فاضلا بحق :

« إن تظاهر الأمير بالفضائل كلها نافع له وإن لم يكن من الضرورى أن يتصف بها ؛ فعليه مثلا أن يتظاهر بأنه رحيم ، وفىّ ، شفيق ، متدين مخلص ؛ ومما يفيده أيضاً أن يتصف بهذه الصفات ، على أن يكون ذا عقل مرن يمكّنه إذا دعت الحاجة من أن يتصف بعكسها . . . وعليه أن يحذر من أن ينطق بكلمة لا تنطبق عليها الصفات الخمس السالفة الذكر ؛ ويجب أن يبدو

لمن يرونه ويستمعون له كأنه الرحمة ، والإيمان ، والتدين ، والاستقامة مجسمة ، وعلى الإنسان أن يلوِّن سلوكه ، وأن يكون مراثياً لأن الناس سذج منهمكون فى حياتهم الحاضرة ، إلى حد يسهل معه خداعهم . . . وفى مقدور كل إنسان أن يرى مظهرك ، ولكن قل من الناس من يعرف حقيقة مخبرك ، وأولئك النفر القلائل لايجرءون على مخالفة رأى الكثرة فيك(١١٥) .

ويضرب مكيڤلى لهذه الحكم أمثلة واقعية ، فيذكر نجاح الإسكندر السادس ، ويرى أن هذا النجاح يرجع كله إلى كذبه المدهش الذى يستثير الإعجاب ؛ ويعجب بفرديناند الكاثوليكى ملك أسپانيا ، لأنه كان يتظاهر دائماً بمظهر المدافع عن الدين فى مغامراته الحربية ، ويمتدح الوسائل التى ارتقى بها فرانتشيسكو اسفوردسا عرش ميلان وهى الشجاعة الحربية والمهارة فى الأساليب العســـكرية منضمة إلى الدهاء الدپلوماسى ، ولكن أعظم مثل يضربه ، وهو مثل يكاد يبلغ فى اعتقاده حد الكمال ، هو سيزارى بورچيا :

« إذا استعدنا فى ذاكرتنا جميع أعمال هذا الدوق فإنى لا أعرف عملا منها يستحق عليه اللوم ، بل إنه ليبدو لى أنى أضعه أمام الناس لكى يقلده كل من يقبضون بأيديهم . . . على أزمة الحكم . . . لقد كانوا يحسبونه قاسياً ؛ ولكن قسوته هى التى أزالت الخلاف من رومانيا كلها ، وضمت شتاتها ، وأعادت إليها السلم والولاء . . . ولقد أوتى روحاً عالية ، وآمالا كباراً ، لم يكن يستطيع بغيرها أن ينظم مسلكه ؛ ولم يحل بينه وبين تحقيق أغراضه إلا قصر حياة الإسكندر ، ومرضه هو . ولهذا فإن من شاء أن يضمن لنفسه الأمان فى إمارته الجديدة ، ويكسب الأصدقاء ، ويغلب الأعداء بالقوة أو الختل ، ويبعث فى قلوب الناس حبه والخوف منه فى آن واحد ، وأن يؤيده الجند ويجلوه ، ويبيد من أوتوا قوة يستطيعون بها

أن يؤذوه ؛ أو كانت لديهم أسباب تدعوهم إلى هذا الإيذاء ، ويستبدل بنظام الأشياء القديم نظاماً جديداً ؛ وأن يكون قاسياً وكريماً ، نبيلا وحراً ، ويحطم قوة الجند غير الموالين له وينشئ بدلهم جيشاً جديداً ، ويحتفظ بصداقة الملوك والأمراء بحيث يرون أن من واجبهم أن يخفوا لمعرفته متحمسين ، فإذا فكروا فى أذاه كانوا حذرين — من شاء هذا فإنه لن يجد مثلا أروع من أعمال هذا الرجل » .

وكان مكيفلى يعجب ببورچيا لأنه كان يشعر بأن أساليبه وأخلاقه تمهد السبيل إلى توحيد إيطاليا ، وأنها لم تحل بينها وبين بلوغ تلك الغاية إلا ما صحبها من مرض البابا وولده . وهو يتوسل فى ختام كتابه **الأمير** إلى لورنتسو الدوق الشاب ، ويتوسل عن طريقه إلى ليو وآل ميديتشى ، أن يعملوا على توحيد شبه الجزيرة . وهو يصف أهل بلاده بأنهم مستعبدون ، « أكثر من العبرانيين ، وأنهم يعانون من الظلم أكثر مما يعانيه الفرس ، وأنهم مشتتون أكثر من الأثينيين ، وأنهم قوم لا رئيس لهم ، ولا نظام ، مهزومون ، منهبون مغتصبون ، ممزقون ، تجتاح بلادهم الجيوش الأجنبية » : « لقد أصبحت إيطاليا وكأنها مسلوبة الحياة ، تنتظر من يقبل عليها ليأسوا جراحها . . . وتدعو الله أن يقيض لها من ينجيها من هذه المظالم وهذه المخازى التى يوقعها عليها الإجانب »[١١٧] . إن الموقف جد خطير ؛ ولكن الفرصة سانحة . « ذلك أن إيطاليا متأهبة ، راغبة فى أن تسير وراء العلم ، إذا ما رفعه إنسان ما » ومن أحق برفعه من آل ميديتشى ، أشهر الأسر كلها فى إيطاليا ، والتى تتزعم الكنيسة فى هذه الأيام ؟

« ومنذا الذى يستطيع أن يعبر عن الحب الذى سوف يفيض به قلب إيطاليا وهى ترحب بمحررها ؛ أو عن تعطشها للانتقام من أعدائها ، أو عن إيمانها القوى ، وإخلاصها ، ودموعها ؟ وأى باب يمكن أن يغلق فى وجهه ؟ ومنذا الذى يضن عليه بالطاعة ؟ إن هذا السلطان الأجنبى الهمجى الذى

نرزح تحته لتزكم رائحته الكريهة أنوفنا . فليتول إذن بيتكم المجيد هذه المهمة ، وليستعن على القيام بها بالبسالة والأمل ، اللذين يتذرع بهما كل من يقوم بمغامرة عادلة ، حتى تسمو تحت علم هذا البيت مكانة بلادنا ، وتحقق بفضل رعايتها تلك الكلمات التى كتبها پترارك :

« إن ذوى الرجولة يمتشقون الحسام ليقاتلوا ذوى الجنة ، وستكون المعركة جد قصيرة ، لأن البسالة القديمة لم ينضب بعد معينها فى عروق إيطاليا » .

٤ — تأملات

وهكذا وجهت إلى آل ميديتشى تلك الدعوة التى وجهها دانتى وپترارك إلى الأباطرة الأجانب ؛ والحق أنه لو أن ليون عاش أطول مما عاش ، ولعب أقل مما لعب ، لشهد مكيڤلى بداية تحرر إيطاليا . ولكن الشاب لورندسو توفى عام ١٥١٩ ، وتوفى ليو عام ١٥٢١ ؛ وفى عام ١٥٢٧ وهو العام الذى توفى فيه مكيڤلى ، كان قد تم خضوع إيطاليا لدولة أجنبية ، وكان لابد أن يتأخر ذلك التحرر ٣٤٣ سنة حتى يحققه كافور Cavour بأساليب مكيڤلى فى الحكم .

ويكاد الفلاسفة يجمعون على التنديد بكتاب **الأمير** كما يكاد الحكام يجمعون على العمل بما فيه من حكم . وبدأ غداة نشره (١٥٣٢) ظهور ألف كتاب تعـــارضه . لكن شارل الخامس درسه بعناية ، وجاءت بـ كترين ده ميديتشى إلى فرنسا ، وكان مع هنرى الثالث وهنرى الرابع ملكى فرنسا وقت وفاتهما ، وكان ريشليو يعجب به ؛ ووليم أورنج يضعه تحت وسادته كأنه يريد أن يستظهره بطريق النضح (١١٨) . وكتب فردريك الأكبر ملك بروسيا كتابه **ضد مكيڤلى** ليجعله تمهيداً لكتاب يتجاوز فيه ما ورد فى كتاب الأمير . ولم يكن معظم الحكام يرون بطبيعة الحال أن هذه

التعاليم وحى جديد ، إلا إذا فهمنا لفظ الوحى أنها تكشف فى غير حكمة أو حذر أسرار طائفتهم . أما الحالمون الذين حاولوا أن يجعلوا من مكيڤلى ثائراً كاليعقوبيين فقد خيل إليهم أنه لم يكتب **الأمير** ليعبر عن فلسفته ، بل كتبه من قبيل السخرية ، ليكشف للناس عن أساليب الحكام وحيلهم ؛ بيد أن كتاب **المقالات** ينطق بهذه الآراء نفسها ويبسط القول فيها ؛ وقد جرؤ فرانسس بيكن فكتب هذه العبارة يصفح بها عن مكيڤلى : « إنا لنشكر لمكيڤلى وأمثاله من الكتاب الذين أظهروا لنا صراحة وفى غير خداع ما اعتاد الناس أن يفعلوه ، لا ما يجب أن يفعلوه »(١١٩) . وأما حكم هيجل Hegal فكان دلالة على الذكاء والكرم :

كثيراً ما أخرج كتاب **الأمير** فى رعب لأنه يحتوى حكماً وأمثالا تدعو إلى أشد أنواع الاستبداد وأدعاها إلى الاشمئزاز ؛ ولكن الحقيقة أن شعور مكيڤلى القوى بضرورة قيام دولة موحدة هو الذى دعاه إلى وضع المبادئ التى لا يمكن أن تقوم دول فى الظروف المحيطة به وقتئذ إلا على أساسها . فقد كان لابد من القضاء على الأمراء والإمارات القائمة وقتئذ ؛ وإنا وإن كان رأينا فى ماهية الحرية لا يتفق مع الوسائل التى يشير بها . . . . والتى تشمل أشد أنواع العنف وأكثرها تطرفاً ، وجميع صنوف الخداع ، والاغتيال ، وما إليها — فلا يسعنا إلا أن نقر أن الطغاة الذين لابد من قهرهم لم يكونوا ليغلبوا بغير هذه الوسائل(١٢٠) .

كذلك صور مكولى Macaualy فى مقال له ذائع الصيت فلسفة مكيڤلى على أنها انعكاس طبيعى لإيطاليا المتوقدة الذكاء الفاسدة الأخلاق التى عودها حكامها المستبدون من زمن بعيد مبادئ كتاب **الأمير** .

ويمثل مكيڤلى آخر صورة من تحدى الوثنية المنتعشة التى عادت إلى الحياة للمسيحية المستضعفة . والدين فى فلسفته يصبح مرة أخرى ، كما كان فى رومة القديمة ، خادماً ذليلا للدولة حلت فى واقع الأمر محل الله . فالفضائل

التى يعظمها مكيڤلى هى الفضائل الرومانية الوثنية دون غيرها — الشجاعة ، والصبر ، والاعتماد على النفس ، والذكاء ، والخلود الوحيد شهرة زائلة لا غير ؛ ولعـــل مكيڤلى قد بالغ فيما للمسيحية من أثر مضعف موهن ، فهل يا ترى نسى مكيڤلى الحروب العوان التى شبث نارها فى العصور الوسطى ، حروب قسطنطين ، وبلساريوس ، وشارلمان ، وفرسان المعبد ، والفرسان التيوتون ؛ وحروب يوليوس الثانى التى لم يمض عليها وقت طويل ؟ إن المبادئ الأخلاقية المسيحية لم تؤكد الفضائل النسوية إلا لأن الرجال كانوا يتصفون بالصفات المضادة لها ، وكانت فيهم قوية لدرجة تؤدى إلى الخراب والدمار ؛ فكان لابد من وجود ترياق شاف لهذا الداء ، ومثل أعلى مضاد له يوعظ به الرومان القساة فى المجتلد ، والبرابرة الغلاظ الذين اجتاحوا إيطاليا ، والشعوب الخارجة على القانون التى تحاول الهبوط إلى بلاد الحضارة . إن الفضائل التى يزدريها مكيڤلى تعمل لبناء المجتمعات المنظمة السلمية ، أما الفضائل التى يعجب بها (لأنها تنقصه كما تنقص نتشه) ، فتعمل لقيام دول قوية ذات نزعة حربية ، وحكام طغاة فى مقدورهم أن يقتلوا الناس بالآلاف ليرغموهم على التضامن والائتلاف ، وعلى إراقة الدماء آنهاراً لتوسيع رقعة البلاد التى يحكمونها . لكنه خلط بين خير الحاكم وخير الأمة ، وأفرط فى التفكير فى الاحتفاظ بالسلطة ، وقلما فكر فيما على صاحبها من واجبات ، ولم يفكر مطلقاً فيما تؤدى إليه من فساد . وتجاهل ما بين دول المدن الإيطالية من تنافس منعش ، وخصب ثقافى ، وقلما كان يعنى بما فى ذلك الوقت من فن رائع ، بل إنه لم يعن بفن رومة القديمة نفسه ، ذلك بأنه ضل فى عبادة الدولة ضلالا مبيناً . نعم إنه أعان على تحرير الدولة من الكنيسة ، ولكنه أسهم فى إقامة نوع من القومية العارمة ودعا الناس إلى عبادتها ، ولم تكن هذه القومية أرقى رقياً واضحاً من الفكرة السائدة فى العصور الوسطى عن وجود دول خاضعة لمبادئ أخلاقية دولية يمثلها البابا .

لقد تحطم كل مثل أعلى بسبب ما طبع عليه الناس من أنانية ، ومن الواجب على كل مسيحى صريح أن يقر بأن الكنيسة وهى تدعو إلى المبدإ القائل بأن الإنسان غير ملزم بالمحافظة على عهده مع الزنديق والجرى على هذه السنة نفسها (كما حدث حين نكث عهد الأمان مع هوس Auss فى كنستانس ومع ألفنسو دوق فيرارا فى رومة) تقول إن من الواجب على كل مسيحى صريح أن يقر بأن الكنيسة وهى تدعو إلى هذا إنما كانت تعمل بمبادئ مكيڤلى عملا يحطم رسالتها بوصفها قوة أخلاقية .

ومع هذا فإن فى صراحة مكيڤلى قوة جافزة دافعة إلى حد ما . ذلك أنا إذا قرأنا كتابه ، واجهنا فى وضوح لا مثيل له عند غيره من المؤلفين ، ذلك السؤال الذى قلما تعرض له غيره من الفلاسفة : هل سياسة الحكم مقيدة بالمبادئ الأخلاقية ؟ وقد نخرج من كتبه بنتيجه واحدة على الأقل : وهى أن الأخلاق الطيبة لا يمكن أن توجد إلا بين أفراد مجتمع مسلح بالوسائل التى نستطيع تعليمها وإلزام الناس باتباعها ، وأن المبادئ الأخلاقية التى يجب أن تتبعها الدول جمعاء يجب أن تؤجل حتى تقوم منظمة تضم الدول جمعاء ، ويكون لها من القوة المادية وفيها من الرأى العام ما تستطيع بهما المحافظة على القانون الدولى . وإلى أن يحين ذلك الوقت فستظل الأمم كالوحوش فى الغاب ؛ وأيا كانت المبادئ التى تجهر بها حكوماتها ، فإن السنن التى تسيط عليها هى الواردة فى كتاب **الأمير** :

وإذا ما عدنا بأنظارنا إلى المائتى عام من الثورة الفكرية التى سادت إيطاليا من أيام پترارك إلى مكيڤلى ؛ تبين لنا أن جوهر هذه الثورة وأساسها لا يعدوان أن يكونا نقص الاهتمام بالعالم الآخر ، والاهتمام المتزايد بالحياة . . فقد ابتهج الناس إذ كشفوا من جديد حضارة وثنية لا يشغل بال الناس فيها الخطيئة الأولى ، أو عقاب الجحيم ، ترتضى فيها الغرائز الفطرية وتعد عناصر فى مجتمع نابض بالحياة خليقة بأن تغتفر . وفى هذه الحضارة فقد

النسك والزهد ، وإنكار الذات ، والإحساس بالخطيئة ما كان لها سلطان على الطبقات العليا من سكان إيطاليا ، وكادت تفقد ما كان لها عندهم من معنى . فاضمحلت الأديرة لقلة من كان يدخلها من الرهبان الجدد ؛ وكان الرهبان — والإخوان ، والبابوات أنفسهم يسعون وراء ملذات الدنيا بدل تعاليم المسيح . وتراخت قيود التقاليد والسلطان ، وكان صرح الكنيسة الضخم أخف على قلوب الناس وأغراضهم من ذى قبل . وأضحت الحياة أكثر اهتماماً بما هو فى خارج الإنسان ؛ ومع أن هذه الضعة كثيراً ما اتخذت شكل العنف ، فإنها طهّرت كثيراً من النفوس من المخاوف والاضطرابات العصبية التى كانت تخيم على العقول فى العصور الوسطى وتسبب لها الكآبة والظلمة . وأخذ العقل الطليق يمرح سعيداً فى جميع الميادين عدا ميدان العلم ، وذلك لأن ما ينشأ عن هذا الانطلاق وذاك التحرر من خصب قلما كان يتفق حتى ذلك الحين مع ما تتطلبه التجارب والبحوث العلمية من تهذيب نفسى وصبر طويل ؛ فهذا التهذيب وذاك الصبر إنما يجيئان فى الدور الإنشائى الذى يعقب التحرر . أما فى الوقت الذى نتحدث عنه فقد أفسحت أساليب التقى السبيل إلى عبادة العقل والعبقرية ؛ واستبدل بالسعى وراء الشهرة الخالدة الاعتقاد ، بألا ضرورة للتقيد بالمبادئ الأخلاقية وعدّت المُثُل الوثنية كالحظ ، والأقدار ، والطبيعة على فكرة الله المسيحية .

وكان لا بد لهذا كله من ثمن . لقد قوض التحرر الساطع للعقل دعائم القوة العليا السماوية المشرقة على الأخلاق ، ولم توجد قوة أخرى لها ما لهذه من سلطان تحل محلها . وكانت النتيجة التحلل من جميع الموانع والقيود . وإطلاق العنان للغرائز والشهوات ، وانتشار الفساد ، والاستمتاع المرح به استمتاعاً لم يعرف التاريخ له مثيلا منذ أن حطم السوفسطائيون الأساطير ، وحرروا العقول ، وأرْخَوا قيود الأخلاق فى بلاد اليونان القديمة .